



طَرِيقَ الْحَيَاةِ

إِلن ج. هوايت

ما هي مواصفات الطريق الذي يؤدي إلى الحياة
الأبدية؟ أين يؤدي الطريق الواسع الرحب؟ كم هم
الذين يجدون الطريق الأول؟ وكم هم الذين يسلكون في
الطريق الثاني؟ ماذا يكتنف طريق الحياة ممّا يجعله
وعراً ومرهقاً؟ هل نشعر بحاجتنا إلى المسيح ونحن
على درب الحياة؟ إلى من يجب أن نتوب ونعترف؟
ما مقدار الإيمان اللازم للطاعة والنمو؟ كيف نتعرّف
على الله بالعمل الدؤوب والصلاة التي لا تنقطع؟ ما هو
أنجح دواء للقضاء على الشكّ وما الذي يوطّد الفرح
في قلوبنا؟

في كتاب «طريق الحياة» منوال سويّ بخطواتٍ
ثابتة تقّادنا إلى الملكوت.. الملكوت الذي في «وسطكم»
والملكوت الذي «تنتظرونه» فهلاً درجت بثقة وإيمان
على هذا الطريق الصعب الميمون المضمون؟

طَرِيفَ الْحَيَاةِ

تأليف: إلن ج. هوايت

المقدمة

يسرنا ان نرف إلى القراء الكرام في اصافع العالم العربي هذه الطبعة الرابعة من كتاب «طريق الحياة».

لقد توخينا في الترجمة الثانية هذه بساطة اللغة مع مراعاة الدقة في التزام الأصل الإنكليزي، ذلك لأننا نعتقد أن عرض الأبحاث العميقة، ولا سيما في الموضوعات الدينية الروحية، التي يتناولها هذا الكتاب، يقتضي الإيضاح وإحكام التعبير على نسق سهل المراس، تمشياً مع الأسلوب الأصلي الخالي من التزييفات البيانية والمحسنات اللفظية المنمقة، وتفايداً من صرف ذهن القاريء عن التأمل في الحقائق الخالدة المقدّمة من الله على صفحات هذا الكتاب، فإن رغبتنا إنّما هي في أن تكون هذه الحقائق الثمينة دانية القطوف لخاصّة القراء وعامّتهم على أحسن وجه وأتم مرام.

ونطلب إلى المولى تعالى أن يجعل هذا الكتاب بركة لقراء العربية كما جعله بركة للكثيرين في أكثر من عشرين لغة.

الفهرس

٥		١-	محبّة الله
١٣		٢-	الحاجة إلى المسيح
١٩		٣-	التوبّة
٣٢		٤-	الإعتراف
٣٧		٥-	التسليم
٤٣		٦-	الإيمَان
٤٩		٧-	الطاعة
٥٨		٨-	النُمو
٦٦		٩-	العَمَل
٧٣		١٠-	التعرف بالله
٨٠		١١-	الصلوة
٩٠		١٢-	الشك
٩٨		١٣-	الفرح

الفصل الأول

محبة الله

تشهد الطبيعة شهادة الوحي بأن « الله محبة » فأبونا السماوي هو مصدر الحياة ومنبع الحكمة والوفاء، تأمل مثلاً جمال الطبيعة وعجائبها، ولاحظ ملاءمتها لجميع حاجات الإنسان والحيوان ولسعادة كل الكائنات، فالشمس والمطر اللذان ينعشان الأرض ويجددان وجهها، والجبال والبحار، والسهول والأنهار التي تبهج الأبصار - كلها تحدثنا بمحبة صانعتها الذي يرزق كل حي في كل آن ومكان. ولقد أنشد في ذلك المرنم قائلاً:

عيونُ الكل لا ترجو سواكَ لتمنحهم طعاماً من نداكَ
تمدُّ يدُك نحو الخلق طراً فتشبع كل حيٍّ من رضاكَ

خلق الله الإنسان باراً سعيداً، وصنع له الأرض الجميلة خلواً من كل لعنة، بريئة من كل فساد، أما اللعنة والموت فقد جلبهما التعدي على ناموس الله - ناموس المحبة. غير أن الآلام التي أثمرتها الخطية لم تحل دون إظهار محبة الله، بل، كما هو مكتوب « ملعونة الأرض بسببك » أي لأجلك. فما الحسك والأشواك، متاعب الحياة وصعابها، سوى درجات سلم القداسة والكمال يستخدمها الله وسائط لرفع الإنسان من وهدة الخطية وإنقاذه من نتائجها الأليمة. فلئن كان العالم قد أضى خاطئاً أثيماً، ليس المعنى أن كل ما فيه محض شقاء وعناء. فالطبيعة لم تزل تحمل رسائل الرجاء والعزاء، إذ أن حسكها تعلوه الأزهار، وأشواكها تكسوها الورود.

إِنَّ آيَاتَ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ لِمَسْطُورَةٌ عَلَى كُلِّ كَمٍّ مِنْ أَكْمَامِ الْأَزْهَارِ وَعَلَى كُلِّ وَرْقَةٍ مِنْ أَوْرَاقِ الْأَشْجَارِ، مَعْلَنَةً لَنَا فِي كُلِّ قَطْرَةِ مَاءٍ، وَفِي كُلِّ ذَرَّةٍ هَبَاءٍ، وَفِي كُلِّ نَجْمٍ لَامِعٍ وَفِي كُلِّ كَوْكَبٍ سَاطِعٍ، وَفِي أَنْشِيدِ الْبَلَابِلِ وَأَغَارِيدِ الْعَصَافِيرِ - كُلِّهَا تَشْهَدُ لِعُنَايَةِ اللَّهِ بِنَا وَتَعْلَنُ رَغْبَتَهُ الْأَبْوِيَّةَ فِي إِسْعَادِنَا طَرًّا.

غير أنّ إعلان الطبيعة مع ما فيها من آيات بينات لم يكن كافياً للإنسان لذلك أعطانا الله كلمته التي أعلن فيها صفاته وكمالاته، فحين طلب موسى أن يرى مجد الله، خروج ٣٣: ١٨ و ١٩، أعلن الله صفاته لموسى بقوله تعالى: «الرب إلهٌ رحيمٌ ورؤوفٌ، بطيء الغضب وكثير الإحسان والوفاء، حافظ الإحسان إلى الألف، غافر الإثم والمعصية والخطية» خروج ٣٤: ٦ و ٧، ثم بقوله للنبي يونس، لأنه «بطيء الغضب وكثير الرحمة»، يونس ٤: ٣، وأيضاً للنبي ميخا «فإنه يسرّ بالرأفة»، ميخا ٧: ١٨. إن هذا هو مجده تعالى.

وهكذا عمل الله على اجتذاب قلوبنا إليه بآيات لا تحصى مما في السماء وما على الأرض، فقد جرب أن يعلن ذاته لنا في الطبيعة وبانتسابه إلينا بأعزّ روابط القربى وأوثقها، وإن كانت هذه تمثل محبته تمثيلاً مبتوراً، وعلى رغم ذلك استطاع الشيطان أن يعمي البصائر والأذهان وأن يجعل الناس ينظرون إلى الله نظرة تخوّف وتهيب، ويأسون من عفوه ورحمته، ويرون فيه إلهاً قاسياً لا يرحم ولا يشفق، يُحصي على الناس زلاتهم، ويرقب عوراتهم وسيئاتهم ويتربص بهم الدوائر لكي يوقع بهم وينتقم منهم، فلأجل إزالة هذه النظرة المظلمة، ولكي يعلن لنا محبة الله الفائقة الوصف، جاء يسوع من السماء وحلّ بين الناس.

أجل، من السماء جاء ابنُ الله ليعلن لنا الآب، لأنَّ « الله لم يره أحدُ قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبِرَ»، يوحنا ١: ١٨، « ولا أحد يعرف الآب إلا الابن، ومن أراد الابن أن يعلن له» متى ١١: ٢٧، وحين سألَه أحدُ تلاميذه قائلاً، أرنا الآب أجابه « أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس، الذي رآني فقد رأى الآب، فكيف تقول أنت أرنا الآب» يوحنا ١٤: ٩.

لقد وصف يسوع رسالته ومهمته على هذه الأرض فقال، « روح الرب عليّ لأنه مسحني لأبشِرُ المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق وللعمي بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحرية» لوقا ٤: ١٨، هذا كان عمله، « فجاء يصنع خيراً ويشفي جميع المتسلط عليهم إبليس»، فكم من قرى عمّها البرُّ والبرءُ، وكم من ضياع نالت الشفاء والعافية لأنَّ يسوع كان قد اجتاز في وسطها، فعاد مرضاها وتحنن على صراعاها، وحيثما سار يسوع ابنُ الإنسان، سارت في ركابه المحبةُ والرحمةُ والحنان، وكفى شاهداً على حبه وعطفه أنه قد اتخذ طبيعتنا وصار مثلنا في كلِّ شيء ما عدا الخطية، مما شجّع الخطاة المنبوذين على الدنو منه والتحدث إليه، وجعل الصغار يلتفون حوله، ويأمنون به ويتفرسون في ما يبدو على محياه من علامات الجدِّ والاهتمام، ودلائل الحبِّ والإتمام.

لقد حرص يسوع دائماً على أن يعلن الحقَّ كله، دون أن يكتُم منه شيئاً، أو يخشى فيه لومة لائم، ولكنه فعل ذلك بروح المحبة، وكان في مخالطته الناسَ يوليهم أكبر جانبٍ من عنايته واهتمامه ويراعي معهم كلَّ ما تقتضيه واجباتُ اللياقةِ واللباقة، فما عامل أحداً بالغلظة قط، ولا تفوّه بكلمة موجعة، ولا عمل على إيلام مخلوق بدون داعٍ أو موجب، ولا راقب زلاتِ العباد وسقطاتهم، ومع

ذلك فاتِه لم يتردد قط في مكاشفة الناس بالحقيقة في صراحة وشجاعة منذراً
إياهم في ترفقٍ ووداعة.

فقد نعى على الناس نفاقهم، ودان نكرهم وكفرانهم، ولكنه كان دائماً يمزج
تحذيراته وتوبيخاته بدموعه وعبراته. ومن ذلك أنه بكى على أورشليم المدينة
التي أحبها، مع أنها لم تقبله، وهو الطريق والحق والحياة، ولقد عامل قومَه
بكل رفقٍ وحنانٍ مع أنهم رفضوه، فرفضوا بذلك عونهم وخلصهم، وكان، مع
ما له من العزة الربانية والكرامة الإلهية، ينظر إلى كل إنسان فيرى فيه نفساً
ثمينة قد وكل إليه من السماء أمرُ تخلصها وإنقاذها.

تلك هي صفات المسيح كما تجلّت في حياته، وهي بعينها صفات الآب
تعالى، فاتِه من قلب الله تدفقت المراحم الإلهية لبني البشر بواسطة المسيح،
فيسوع الرؤوف العطوف، إنما هو الله قد ظهر في
الجسد. ١٦:٣ تيموثاوس.

ولئن كان يسوع قد عاش وتألّم ومات، وصار رجل أوجاع ومختبر الحزن
فما ذلك كله إلا لكي يجعلنا شركاءه في الأفراح الأبدية. وهكذا سمح الله تعالى
بأن ينزل ابنه الحبيب، مملوءاً نعمة وحقاً، من عالم المجد الفائق إلى عالم
ملوث بالإثم، وموبوء بالخطية، وإلى أرض قد جللها سواد الموت، وغشتها
أشواك اللعنة، بل هكذا سمح الله لابنه الوحيد بأن يترك أحضان المحبة الأبوية،
وما يحفُّ به من العبادات الملائكية، لكي يأتي إلى بني البشر حيث هم، محتملاً
منهم العار والهوان، والكرهية والنكران. وفي النهاية مات ميتة المذنبين
المجرمين، لأن «تأديب سلامنا عليه وبحبره شفينا» إشعياء ٥٣:٥.

تطلع إليه وهو في جثسيماني وهو على الصليب فهذا ابنُ الله القدوس، الذي لم يعمل ظلماً، ولم يكن في فمه غشٌّ، قد ناعت كاهلاه تحت أعباء اللعنة وأنقال الخطية، ثم انظر إليه ثانية، فترى ابنَ الله الذي كان في اتحادٍ تامٍ مع الآب، قد أصبح يشعر بتلك العزلة الرهيبة، والهوة السحيقة التي تفصل الإنسانَ الخاطيء عن الله، مما جعله يصرخ صرخة متألِّم متوجِّع بقوله « إلهي إلهي لماذا تركتني»، متى ٢٧: ٤٦، فإنَّ شعوره بفداحة عبء الخطية، وإدراكه لهول جرمها، وإحساسه بانفصام عرى الشركة بين النفس والله كانت الأمور التي عملت على سحق قلب ابنِ الله الحبيب.

على أنَّ هذه التضحية العظمى لم يأتها الابنُ ليخلق في قلب الآب محبةً للإنسان، ولم يقصد بها أن يجعل عند الآب الرغبة في العمل على خلاص الإنسان، كلاً، « لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد » يوحنا ٣: ١٦. فالكفارة، إذن، لم تكن هي علة المحبة التي أحبنا بها الآب، وإنما الآب أحبنا فأعدَّ لنا الكفارة، وكان المسيح هو الوسطة التي بها سكب الله محبته على عالم قد ضلَّ وهوى، إذ « أن الله كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه»، ٢ كورنثوس ٥: ١٩. ففي بستان جثسيماني، وعلى صليب جلجثة، تألم الآب مع ابنه، ودفعت المحبة ثمن فدائنا غالباً.

وليس أدلَّ على محبة الآب لنا مما نطق به يسوع نفسه في قوله: « لهذا يُحِبُّني الآب لأني أضع نفسي لآخذاها » يوحنا ١٠: ١٧. فكأنِّي به يقول: لقد زادت محبة أبي لي وزاد تقديره إليَّ لكوني قد بذلت حياتي لأجلكم طائعا مختاراً، ورضيت بأن أكون بديلكم وكفيلكم، حاملاً ذنوبكم وموفياً ديونكم، لأنه بفضل

ذبيحتي الفدائية، وأعمالي الكفارية، أمكن الله تعالى أن « يكون باراً ويبرر من هو من الإيمان بيسوع » رومية ٣: ٢٦.

لم يستطع أن يفدينا غير ابنُ الله، إذ لم يقدر أن يعلن الله غيرَ الذي كان في حضنه، الذي وحده استطاع أن يظهر محبته لأنه سبر غورها وبلغ ذراها، ولم يكن ليكفي للتعبير عن محبة الله للبشرية الهالكة تعبيراً وافياً إلاّ الذبيحة اللامتناهية التي قدمها يسوع لفدائنا.

«لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد»، وقد بذله، لا لكي يعيش بين البشر، ويحمل خطاياهم، ويموت ذبيحة عنهم، فحسب، بل وهبته للجنس البشري هبةً، فصارت شؤونهم شؤوناً، وحاجاتهم حاجاتِهِ فالذي هو واحد مع الآب ارتبط بالبشرية ارتباطاً لا تنفصم عراه أبداً، فهو « لا يستحي أن يدعوهم أخوة » عبرانيين ١: ١١، لأنه هو ذبيحتنا، بل شفيغنا بل أخونا، يحمل صورتنا كائن الإنسان وهو على عرش الآب، فهو إلى الأبد واحدٌ مع الجنس الذي فداه بدمه، وقد صار ذلك كله لأجل رفع الإنسان من وهدة الخطيئة وخرابها إلى الاشتراك في فرح القداسة وإلى إعلان محبة الله للعالمين.

إنّ ثمن فدائنا الغالي، أي تضحية أبينا السماوي في بذل ابنه الوحيد لأجلنا، ليدلّ على المقام الرفيع الذي قد نبّلغهُ في المسيح، فالرسولُ الملهمُ، يوحنا الحبيب، إذ أدرك شيئاً من علو محبة الله وعمقها وعرضها، ولم يجد كلمات بها يعبر عن عظم هذه المحبة لجنس هالك، دعا الجميع للتأمل فيها قائلاً « انظروا أية محبة أعطانا الآب حتى ندعى أولاد الله » يوحنا ٣: ١. فما أعظم مقام الإنسان نتيجة لهذا الفداء. فبنو الإنسان الذين قد صاروا بالمعصية رعايا

إبليسَ يصيرون بالإيمان بذبيحة المسيح الكفارية أبناءَ الله. بتجسده رفع يسوع شأنَ البشرية وجعل الخطاةَ الهالكين في مركز يستحقون فيه اللقب السامي العظيم « أولاد الله ».

إن هذه المحبة منقطعة النظير، أن نكون أولاداً لملك السماء. إنه لوعده ثمين وعهد كريم، وموضوع يستحق التأمل العميق - موضوع محبة الله القدير لعالم لم يحبه. إن لهذه الفكرة، إذا استغرق المرء فيها، قوةً على إخضاع النفس، وقدرةً على استئثار الذهن لإرادة الله، لأنّ التأمل في صفات الله، في ضوء الصليب، ليعلن لنا الرحمة والشفقة والمغفرة، متحدة بالعدالة والبرّ والقداسة، وليجلو لنا آثار حب لا حدّ له، يفوق محبة الأم وحنانها على ولدها التائه الشريد.

حب المخلص الورى الفادي

سام يفوق الوصف والإدراك

فالقلب مشتاق لأن يدري

عميقة مستقصيا في بحره إذ ذاك

نعم سمت محبة الفادي

يا ليت كل الناس تدريها

فتقتفي آثاره طوعا

تابعة كالضأن راعيها فتتهدي

حب الذي قد مات مصلوباً

عن اثنا أسمى من الشكر

مع ذاك قلبي دائما يسمو

الفصل الثاني

الحاجة إلى المسيح

لقد خُصَّ الإنسانُ، حين خلقه، بقوى سامية وعقلية متزنة، فكانت حياته حياة الكمال والتوافق مع الله، وكانت أفكاره طاهرة، وأغراضه مقدسة، ولكنه ما لبث أن عصى ربه وخالف أمره، فحلت فيه الأثرة والأناية محل الإيثار والتضحية وبات ضعيفاً عاجزاً لا يقوى على مقاومة سلطان الخطية وتأثيرها بجهوده الذاتية وقوته الشخصية، لأنَّ الشيطان قد استأسره، ولولا أنَّ الله تعالى لطف بالإنسان وتدخل في أمره، لأبقاه الشيطان أبداً الدهر في قبضته وأسره، فقد كان قصْدُ المجرب أن يعطل تدبيرات الله، ويحول دون تحقيق مقاصده السامية بشأن الإنسان فيملأ الأرض علقماً وصاباً، ويجعلها بلقاعاً وخراباً، حتى إذا تمَّ له ما أراد، نسب كل هذا البلاء المرير والشرَّ المستطير إلى الله تعالى، لأنه خلق الإنسانَ وخصَّه بمثل هذا الكيان والوجدان.

فالإنسان في براءته كان يتصل اتصالاً بهجاً « بالمذخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم » كولوسي ٢: ٣. أما وقد اخطأ فلم يعد يرى في الطهارة لذة وسروراً أو في محادثة ربه فرحاً وحبوراً، بل حاول أن يتوارى ويختبئ من حضرة الله، وهذه حالة كل إنسان لم يتجدد بعد إذ أنه لا يكون في حالة وئام مع الله، ولا يشعر بفرح في الاتصال به والتحدث إليه. فالخاطيء لا يمكنه أن يكون سعيداً وهو في حضرة الله كما أنه ينفر من معاشرة الملائكة الأعلى، فلو أُتيح له أن يدخل السماء، لما بعث ذلك فرحاً في نفسه، لأن نفسه لا تطرب لروح الإيثار

الذي يسود سكان السماء، وقلبه لا يتجاوب مع قلب المحبة العظمى، فضلا عن أن اهتمامه، وأفكاره، ودوافعه، تبدو غريبةً ومناقضةً لبواعث أولئك البررة الأبطال. فهو إذن يكون كنغمة ناشزة في لحن السماء، بل تكون السماء له مكاناً ألم وتعذيب حتى ليودَّ أن يختبئ من ذاك الذي هو مصدر نورها ومبعث بهجتها وحبورها، فليس حرمان الأشرار من دخول السماء أمراً مقضيا به من الله، بل عدم صلاحيتهم لها هو الذي يحول دون دخولهم إليها، إذ أن مجد الله يكون لهم نارا آكلة، حتى أنهم ليلتمسون الهلاك التماسا تواريا من وجهه ذاك الذي مات لكي يفقديهم.

إنه ليستحيل علينا أن ننقذ أنفسنا من هوة الخطية التي تردنا فيها، فقلوبنا شريرة وليس في استطاعتنا أن نغير ما بها، كما يصف ذلك أيوب في قوله: «(من يخرج الطاهر من النجس. لا أحد)». أيوب ٤: ١٤، وكقول الرسول بولس: «(لأن اهتمام الجسد هو عداوة لله إذ ليس هو خاضعا لنا موس الله، لأنه أيضا لا يستطيع)» رومية ٨: ٧. أما وسائل التربية والتعليم، والتهديب والتثقيف، وتدريب الإرادة، وما إلى ذلك من الجهود البشرية التي تبذل في سبيل ترقية الإنسان، فهذه كلها لها قيمتها ومكانتها في نواح أخرى من الحياة، لكنها في هذا الموضوع بالذات عديمة الجدوى. فهي قد تكون ذات تأثير في تحسين سلوك الإنسان وصقله من الخارج، ولكنها لن تقوى على تغيير قلبه وتطهير بواعثه وأفكاره، لأن الانتقال من حياة الخطية والرديلة، إلى حياة القداسة والفضيلة، يستلزم حتما قوة تعمل على تغيير الإنسان من الداخل، ويقتضي حياة جديدة يؤتاها الإنسان من فوق، وهذه القوة هي المسيح، فإن نعمته وحدها هي التي تحيي النفس المائتة، وتجذبها نحو الله، وتستميلها إلى حياة القداسة والكمال.

وقد قال المخلص إن كان أحد لا يولد من فوق، أي أنه ما لم يحصل الإنسانُ الخاطيء على تجديد في قلبه وأفكاره، ورغائبه وبواعثه، فإنه لا يقدر أن يرى ملكوت الله. يوحنا ٣: ٣. فالفكرة في أن الحاجة الوحيدة إنما هي إلى تنمية التقوى الفطرية والصلاح الطبيعي الكامنين في نفوسنا، إن هي إلا خدعة مميتة، لأن الإنسان الطبيعي أي غير المتجدد « لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة. ولا يقدر أن يعرفه لأنه إنما يحكم فيه روحيا » ١كورنثوس ٢: ١٤. « لا تتعجب اني قلت لك ينبغي أن تولدوا من فوق » يوحنا ٣: ٧، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن المسيح وحده هو المكتوب عنه « فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس » يوحنا ١: ٩، وأيضا « ليس اسم آخر تحت السماء قد أعطي بين الناس به ينبغي أن نخلص » أعمال ٤: ١٢.

فلا يكفي أن نشعر برحمة الله، ندرك ما تنطوي عليه صفاته من الشفقة والحنو الأبوي، ولا يكفي أن ندرك حكمة الناموس وعدالته، ندرك أنه قائم على مبدأ المحبة الأبدي. فبولس كان مدركا لهذه كلها حين قال « فإني أصادق الناموس أن حسن » رومية ٧: ١٦، وأنه « مقدس والوصية مقدسة وعادلة وصالحة » رومية ٧: ١٢، ولكنه مضى يقول أيضا وهو في مرارة الألم واليأس « أما أنا فجسدي مبيع تحت الخطية » رومية ٧: ١٤، إذ أنه كان يتوق إلى البر والطهارة، ولكنه كان عاجزا في نفسه عن بلوغهما، مما جعله يصرخ قائلا: « ويحي أنا الإنسان الشقي. من ينقذني من جسد هذا الموت » رومية ٧: ٢٤. ولقد ردد مثل هذه الصرخة، في كل الإعصار والأمصار كثيرون من ذوي القلوب المثقلة بالخطية، ولم يكن لهم من جواب سوى قوله تعالى « هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم » يوحنا ١: ٢٩.

كثيرة هي الصور والرموز التي بها التمس روح الله تمثيل هذه الحقيقة لتكون واضحة جلية لكل من يتوق إلى التحرر من عبء الخطية. ومن تلك الصور ما أعلنه الله ليعقوب حين هرب على إثر مخادعته لإسحاق أبيه، فقد كان يعقوب ينوء بذنبه ويرزخ تحت ثقل إثمه، حتى أن تخوفه من خطيته طغى على كل ما كان يشعر به من الفراق والبعد، والحرمان والافتراء. وكان جل ما يخشاه أن تؤدي خطيته إلى فصله عن الله، وإقصائه عن السماء. وبينما هو على هذه الحالة من الحزن والكآبة استلقى على الأرض، مفترشا الغبراء، وملتحفا بالعراء، ولم يكن حوله سوى تلال موحشة جرداء. ولما نام طرق عينيه نورٌ غريب، فإذا منظر سلمٍ متسع، بدا له من السهل الذي كان مضطجعا فيه، وكان السلم متجها إلى فوق، ومؤديا إلى باب السماء، وعلى درجاته يصعد ملائكة الله وينزلون، ومن المجد الأسنى، سمع الصوت الإلهي يردد رسالة العزاء والرجاء، ويعلن ليعقوب ما كان يصبو إليه قلبه، أي أنه تعالى يكون له حافظا ومخلصا، ففي غمرة الفرح والشكر تجلّى له الطريق الذي به يستطيع، كخاطيء، أن يسترد اتصاله بالله، إذ أن السلم التي ظهرت له في الحلم، إنما هي تمثل المسيح، الوسيط الوحيد، بين الله والإنسان.

وإلى هذا الرمز عينه أشار المسيح في حديثه مع نثنائيل إذ قال « الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة، وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان » يوحنا ١: ٥١. فإن الإنسان إذ عصى الله وارتد عنه، قد أقصى نفسه عن حضرة الله، فاتفصلت بذلك الأرض عن السماء، وصارت بينهما هوة لم يستطع أحد عبورها، ولكن بواسطة المسيح، وبفضل استحقاقاته، أزيلت الهوة التي أحدثتها الخطية، وأعيد سلم الاتصال بين الأرض

والسما، فتنسّى إذاً وبه وحده يمكن الإنسان الضعيفُ العاجزُ ان يجدد اتصاله بمصدرِ القوة التي لا تحدّ.

من العبث أن يحلم الناس بإحراز شيء من التقدّم والنجاح، ومن الباطل أن يسعوا لرفع شأن الإنسانية، ما داموا مصرّين على تجاهل ذلك المصدر الأعلى، الذي يجب أن تستمد منه البشرية الصريعة كلّ معونة ورجاء، لأن « كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق نازلة من عند أبي الأنوار الذي ليس عنده تغيير ولا ظل دوران » يعقوب ١: ١٧، ومن العبث أيضاً أن يحاول الإنسان التحلّي بمكارم الأخلاق وهو بعيد عن المسيح، لأنّه ليس من سبيل للوصول إلى الله إلا بواسطة ذاك الذي قال عن نفسه « أنا هو الطريق والحق والحياة. ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي » يوحنا ١٤: ٦.

فقلب الله تعالى تَوَاق إلى أولاده على الأرض لأنه يكنّ لهم حباً أقوى من الموت، وكفانا آية على هذا الحب العجيب، أن الله قد جمع كلّ بركات السماء ومزاياها في عطية واحدة ألا وهي عطية الابن الوحيد، تلك العطية التي لا يُعبّر عنها، فما حياته وموته وشفاعته، وما خدمة الملائكة، وشفاعة الروح وما الأب العامل فوق الكل، وما المخلوقات الروحية وهي في شغلٍ شاغلٍ، ما هذه إلا قوى معبأة، ووسائل مهَيَّأة لخلاص الإنسان خلاصاً أبدياً.

فلنتأمل في التضحية المدهشة التي بذلت في سبيل خلاصنا، ولنقدّر كلّ ما جادت به السماء، من جهد وعناء، في سبيل إنقاذ الهالكين واسترجاع الضالّين إلى حظيرة الآب السماوي، فإنه ما من شيء يخلقُ فينا بواعثَ قويةً، وحوافزَ شديدةً، مثل التأمّل في تضحية المسيح، وهلاً يحفزنا لخدمة سيدنا ومخلصنا ما

أعدّه من أجرٍ وثوابٍ لمن يفعلون الصّلاح، وهلاًّ تستهوينّا تلك الأفرّاح السماوية؟ أو لا نطلب حياة الرفعة والتسامي، ونرغبُ في ازدياد قوّانا وموَاهِبنا، واتّساع معارفنا ومداركنا؟ أو ليست هذه كلّها ممّا يستحثنا على أن نقدّم لخالقنا وفادينا خدمةً المحبة القلبية؟

ومن جهةٍ أخرى فإنّ كلمة الله تحذّرنا من خدمة الشيطان وتعلن لنا دينونة الخطيّة، وقصاصها المحتوم، وما يحلّ بمرتكبيها من الاحتطاط الأدبي والتدهور الخُلقي وما يلقونه في النهاية من الهلاك الأبدي.

أفلا نقدّر رحمة الله؟ وأي شيء كان ممكناً أن يعملهُ أكثر ممّا عمل فلنسعِ إذن إلى تصحيح موقفنا بالنسبة للذي أحبنا حباً فائقاً عجبياً، ولننتفع بالوسائط المقدّمة لنا، حتّى نتغيّر إلى شبهه، ونعاذُ إلى عشرة الملائكة العاملين ونصيرُ في وئامٍ وشركةٍ مع الآب والابن والروح القدس.

إليك حاجتي	في كل حين
وفيك قوّتي	ربي الأُمين
كلّ حاجتي إليك	كلّ إعوازي لديكا
كلّ تكلّلي عليك	ربي يسوع
إليك حاجتي	في كل حال
وأنت منيبي	رب الجلال
إليك حاجتي	في التجربة
ومنك نصرتي	والغلبة
إليك حاجتي	وقت الصلاة
فاسمع لطلبتي	رب الحياة

التوبة

كيف يتبرر الإنسان عند الله؟ وكيف يتزكى المذنب؟ إنما بالمسيح وحده نصيرُ في وفاقٍ مع الله، واتّساقٍ مع القداسة، ولكن كيف يتسنّى لنا أن نأتي إلى المسيح؟ كثيرون يسألون هذا السؤال الذي سألّه الجمهور في يوم الخمسين إذ «نُخسوا في قلوبهم» فصرخوا قائلين «ماذا نصنع» أعمال ٢: ٢٧، وأول كلمة أجاب بها القديس بطرس كانت قوله «توبوا» أعمال ٢: ٣٧، وما لبث بعد ذلك أن قال في موضع آخر: «توبوا وارجعوا لتُحمى خطاياكم» أعمال ٣: ١٩.

أما التوبة فهي الحزنُ على الخطية والإقلاع عنها، ولا يقلعُ عنها المرءُ ما لم يتبين شرّها ولا يصيرُ تغييرُ في الحياة ما لم يرجعَ عنها رجوعاً باتاً.

غيرَ أنّ الكثيرين يخطئون فهم كنه التوبة، فمنهم من يحزن على خطيئة، بل يحاول إصلاح سيرته إصلاحاً خارجياً، لأنّه إنما يخشى أن خطيئته قد تجلب عليه خسارة وألماً، ولكنّه لم يتب توبة بمعنى الكلمة، لأنّه إنما يندب الآلام لا الخطيئة، فشأنه شأن عيسو الذي بعد أن باع البكورية بكى على ضياع بركاتها إلى الأبد، وحاله حال بلعام الذي أقر بذنبه، خوفاً على حياته حين رأى الملاك يعترض طريقه والسيف السليل بيده، ولكنّه لم يتب عن الخطيئة ولم يغيض شرّها، لأنّه لم يغير قصده واتجاهه، وهكذا يهوذا الاسخريوطي فبعد أن أسلم سيده اعترف قائلاً «أخطأت إذ أسلمت دما بريئاً» فالذي أكرهه على الاعتراف

هو شعوره بالإدانة وانتظاره القصاص، لأن العواقب التي لا بدّ من أن تأتي بها الخطية ملأت نفسه رعباً وقشعيرةً، وأما الحزن العميق على إنكاره ابن الله، والأسف الشديد على خيانتة قدوس إسرائيل، فكانت نفسه بريئة منهما، وفرعون كان كلّما حلت به ضربة من الضربات يصرخ قائلاً « أخطأت » حتّى إذا ما استجاب الله لصراخه ودعائه عاد إلى عناده وكبريائه، فهؤلاء جميعهم كانوا يحزنون لا بسبب الخطية ذاتها بل خوفاً من عواقبها المؤلمة.

ولكن عندما يستسلم الإنسان لتأثير الروح القدس يحيا الضمير، فيأخذ الخاطيء يدرك شيئاً من عمق الناموس وقدسيتها الشريعة التي هي قاعدة حكم الله في السماء وعلى الأرض، ويشرق في نفسه « النور الذي ينير كل إنسان » خارقاً إلى الأعماق وكاشفاً خفايا القلب فيمتلك فكر الخاطيء الشعور بالتبكي والإدانة، ثم يرى برّ الله فيعتريه الرعب من الظهور بذنبه ونجاسة قلبه أمام فاحص القلوب ومختبر الكلى، ثم يرى أيضاً محبة الله، وجمال القداسة، وبهجة الطهارة، فيتوق إلى التطهير وإلى استعادة صلته بالسماء.

إنّ الصلاة التي صلاها داود إثر سقطته لتصور لنا الحزن الحقيقي بسبب الخطية، فقد كانت توبته خالصة وعميقة، إذ لم تبد منه أية محاولة لتلطيف جرمه أو لاستصغار ذنبه، ولم تكن الرغبة في النجاة من العقاب الذي هدده هي التي أوحى إليه بهذه الصلاة، وإنّما داود كان قد أدرك فداحة تعديّه، وتبين له ما في نفسه من دنس ونجاسة، فأبغض الخطية وكرهها، حتّى أنه، حين صلى، لم يلتبس فقط الحصول على الغفران بل طلب أيضاً طهارة القلب، فقد كان مشتاقاً إلى بهجة القداسة، توّافاً إلى استعادة صلته بالله، كما عبّر عن ذلك بقوله:

«طوبى للذي غفر أثمه، وسُتِرَتْ خطيئته. طوبى لرجل لا يحسب له الرب خطية، ولا في روحه غش» مزمو ٣٢: ١٠ و ٢.

«ارحمني يا الله حسب رحمتك، حسب كثرة رأفتك امح معاصي، اغسلني كثيرا من أثمي ومن خطيئتي طهرني لأني عارف بمعاصي وخطيئتي أمامي دائما ... طهرني بالزؤفا فأطهر، اغسلني فأبيض أكثر من الثلج ... قلباً نقياً أخلق فيّ يا الله وروحا مستقيما جدد في داخلي، لا تطرحني من قدام وجهك وروحك القدوس لا تنزعه مني، رد لي بهجة خلاصك وبروح منتدبة أعضدني» مزمو ٥١: ١-٣ و ٧ و ١٠ و ١٢.

«نجني من الدماء يا الله إله خلاصي، فيسبّح لساني برك» مزمو ٥١: ١٤.

فمثل هذه التوبة ليست في مقدورنا، إنها فوق طاقتنا، وإنما نؤتاها من المسيح الذي إذ «صعد إلى العلاء أعطى الناس عطايا» من بينها عطية التوبة.

يخطيء كثيرون فهم هذه الحقيقة فيفشلون في الحصول على المعونة التي يريدونها لهم المسيح، إذ يظنون أنه ليس في إمكانهم أن يأتوا إليه إلا إذا تابوا أولاً، وأنّ التوبة هي التي تعدّ لهم السبيل للحصول على الغفران، نعم إنّ التوبة تسبق الغفران، لأنّه لا يشعر بحاجة إلى الغفران، إلّا كلّ ذي قلب منكسر وروح منسحقة، ولكن هل معنى ذلك أنّه يجب على الخاطيء ألا يأتي إلى المسيح حتى يتوب أولاً؟ وهل نجعل من التوبة عقبة تحول دون وصول الخاطيء إلى مخلصه؟

إنّ الكتاب المقدس لا يعلم أنّ الخاطيء يجب أن يتوب قبل أن يستجيب لتلك الدعوة التي يناشدنا بها المسيح قائلا: «تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم» متى ١١: ٢٨، إذ أنّ القوة التي تفقدنا إلى التوبة الحقيقية إنما هي قوة من المسيح، كما أوضح ذلك القديس بطرس للإسرائيليين في قوله: «هذا رفعه الله يمينه رئيسا ومخلصا ليعطي اسرائيل التوبة وغفران الخطايا» أعمال ٥: ٣١، فكما أننا بدون المسيح لا نستطيع الحصول على الغفران كذلك أيضا لا يمكن الحصول على التوبة بدونه.

إنّ المسيح هو مصدر كل باعث حق، وهو وحده القادر أن يغرس في قلوبنا عداوة للخطية، فكلّ رغبة، تتولد فينا نحو الحق والطهارة، وكلّ ما نحسّه من الشعور بذنبنا وإثميتنا إنما هو دليل على أنّ روحه يعمل فينا.

لقد قال المسيح: «وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجدب إليّ الجميع» فيجب أن يعلن المسيح للخطاة مخلصا يموت عن خطية العالم لأنا، إذ نراه، حمل الله، مرفوعا على صليب جلجثة، نأخذ ندرك شيئا من سرّ الفداء، فيقتادنا لطف الله إلى التوبة، فالمسيح بموته عن الخطاة أمان اللثام عن حبّ يفوق الوصف والإدراك، وكلما تأمل الخاطيء في هذا الحب لأنّ قلبه، وذابت روحه وانسحقت نفسه فيه.

ويحدث أنّ بعضا من الناس يستهجنون شرّ أعمالهم، فيقلعون عنها وهم لا يدرون أنّ الذي يعمل فيهم ويجذبهم إلى هذا الإصلاح هو المسيح، ولكن الحقيقة هي أنّ كل مجهود إصلاحي يقومون به عن رغبة خالصة لعمل ما هو حق وصواب إنّما هو تأثير روح المسيح الذي يجذبهم إليه، إذ يستحثّ قلوبهم،

من حيث لا يشعرون، فتحميا ضمائرهم، وتتغير حياتهم، وإذا يستميلهم المسيح ليلتفوا إلى الصليب ويروه معلقاً هناك مطعوناً بخطاياهم، تتمكن الوصية من ضمائرهم، فيتجلى لهم شرّ حياتهم، وتتكشف لهم الخطية المتأصلة في قلوبهم وإذا يدركون شيئاً من برّ المسيح وكماله يصيحون قائلين ما هي الخطية حتى يستلزم فداءً فرائسها كل هذه التضحية وهل يتطلب الأمر كل هذه المحبة وكل هذا الاتضاع وكل هذه الآلام لكي لا نهلك بالخطية بل تكون لنا الحياة الأبدية؟

وقد يقاوم الخاطيء هذه المحبة، وقد يرفض أن ينقاد إلى يسوع، ولكنه إذا لم يقاوم فإنه لا بدّ من أن يجذب إليه، إذ أنّ معرفة تدبير الخلاص تقوده إلى الصليب فيأتي إليه نادماً على خطاياها التي سببت كل هذه الآلام لابن الله الحبيب.

إنّ القوة الإلهية التي تعمل في إحياء الطبيعة هي عينها التي تعمل في قلوب الناس وتخلق فيهم شوقاً وهياماً إلى ما يفتقدون إليه وما لا يستطيع العالم أن يمدهم به، وروح الله هو الذي يتوسّل إليهم أن يلتمسوا فقط الأشياء التي تنيلهم السلام والراحة، أي نعمة المسيح وبهجة القداسة، فيوسائل مرموقة، وغير مرموقة يسعى مخلصنا دائماً إلى استمالة عقول الناس من ملذّات الخطية غير المشبعة إلى البركات الثمينة التي ينالونها فيه، فإلى كل من يلتمس عبثاً أن يرتوي من آبار العالم المشققة يوجّه الله دعوته قائلاً: «من يعطش فليأت. ومن يرد فليأخذ ماء حياة مجاناً» رؤيا ٢٢: ١٧.

فأنتم يا من تتوق قلوبكم إلى ما هو أفضل وأسمى مما يعطيكم إياه العالم،
اعلموا أن شوقكم هذا هو صوت الله لضمائركم، واطلبوا إليه أن يمنحكم التوبة،
ويعلم لكم المسيح في محبته الفائقة الوصف، وطهارته الكاملة، ففي حياته قد
تمثّلت المبادئ التي تتلخص فيها الشريعة الإلهية، أعني المحبة لله والمحبة
للإنسان، فالمحبة والرحمة كانتا جوهر حياة يسوع، حتى إننا إذ نراه نتيقن من
نجاسة قلوبنا ونلتمس رحمته الغافرة.

قد يكون أننا تملّقنا أنفسنا، كما راود نيقوديموس نفسه، فنظن أن حياتنا
مستقيمة، وأن أخلاقنا قويمة فلا نحتاج إلى أن نتذل أمام الله تذل أحد عامة
الخطاة، ولكن متى أشرق في قلوبنا نور المسيح ظهر لنا مدى نجاستنا وأثرنا
وعداوتنا لله، وعندئذ نعرف أن كل أعمالنا ملوثة بل أن أعمال برنا كثوب عدة،
وأن دم المسيح وحده كفيل بتطهيرنا من نجاسة الخطية وبتجديد قلوبنا لكي
نكون مشابهين لصورته.

فإن النفس إذ يتخللها شعاع يسير من مجد الله، وقبس ضئيل من طهارة
المسيح، يتضح لها في ألم ما بها من لوثة وندس، وتتكشف لها نقائص
الصفات البشرية واعوجاجها، وتتبين ما هي عليه من فساد في الميول وجحود
في القلب ونجاسة الشفاه، وهكذا يعرض أمام عيني الخاطيء ما قد قام به من
أعمال الخيانة، بنقضه ناموس الله، وتعطيل أحكام الشريعة، مما يجعله في حالة
ألم وانسحاق تحت تأثير روح الله الفاحص القلوب، وإذا تتجلى صفات المسيح
الطاهرة النقية لمثل هذا الخاطيء فإنه يمقت نفسه ويكرهها.

إنّ دانيال حين رأى الرسول السماوي، وشهد ما حقّه من المجد والبهاء، بدأ يتملّكه شعور قوي وإحساس جارف بأنّه إنسان ناقص ومخلوق ضعيف، وقد وصف هذا المنظر العجيب فقال: «ولم تبق فيّ قوة، ونضارتي تحولت فيّ إلى فساد، ولم أضبط قوة» دانيال ١٠: ٨، فإن النفس التي يمسّها الروح على هذا النحو لا بدّ من أنها تكره الأتانية، وتعاف محبة الذات، وتنشد، بواسطة بوسّ المسيح، حياة الطهارة التي توائم شريعة الله، وتتفق مع أوصاف المسيح وسجاياه.

وكذلك الرسول بولس فإنه قال عن أعماله الظاهرية وسيرته الخارجية: «من جهة البرّ الذي في الناموس بلا لوم» فيلبي ٣: ٦، ولكنّه عندما تبين طبيعة الناموس الروحية، رأى نفسه خاطئاً، فهو إذ طابق الناموس على حياته مطابقة حرفية ظاهرية، كما يفعل الناس، رأى نفسه بلا لوم، ولكنّه حينما تأمّل في عمق الشريعة المقدّسة رأى نفسه كما رآه الله، فأنحنى خجلاً واتضاعاً واعترف بآثمه وذنبه قائلاً: «أما أنا فكنت بدون الناموس عائشاً قبلاً، ولكن لما جاءت الوصية عاشت الخطية فمتُّ أنا» رومية ٧: ٩، وهكذا عندما عرف روحانية الناموس ظهرت له شناعة الخطية وبشاعتها، وزايله كل ما كان في نفسه من زهو وافتخار.

فالله تعالى، وإن كان يرى الذنوب تتفاوت في جسامتها، لا يستصغر خطية ما، مهما صغرت في أعين الناس، لأنّ حكم الإنسان حكم جزئي ناقص وأما الله فيقدّر الأمور على حقيقتها، فالناس يحتقرون السكير مثلاً وينذرونه بسوء المغبة والمصير، في حين أنهم يتغاضون عن زجر أهل الكبرياء والأتانية والطمع، وهي الخطايا التي يملكها الله بنوع خاص، لأنها تنافي طبيعته السمحة

وتضاد المحبة الخالصة التي تكون جوّ العالم الذي لم تصل إليه الخطيئة، فقد يشعر مرتكب إحدى الخطايا الجسيمة بالخرى والعار، ويحس بافتقاره إلى البرّ واحتياجه إلى المسيح، ولكن المتكبر لا يشعر بحاجة ما، فتحول كبرياؤه دونّه ودون المسيح وتحرمه من بركات الخلاص التي جاء يسوع لكي يمنحها إياها.

فإنّ ذلك العشار المسكين الذي صلّى قائلاً: « ارحمني أنا الخاطيء » لوقا ١٨: ١٣، اعتبر نفسه شريراً أثيماً، وهكذا كان يراه غيره أيضاً، ولكنّه شعر بحاجته، فجاء بذنبه وعاره إلى الله، ملتمساً رحمته تعالى، وفتح قلبه لتأثيرات روح الله القدوس كيما يحدده ويغيّره، وسلّم نفسه للنعمة القادرة أن تخلصه وتحرره، وأما الفريسي فكانت صلاته مملوءة بروح الزهو والافتخار، مما دلّ على أنّ قلبه كان مغلقاً دون تأثير الروح القدس فإنّه بسبب ابتعاده عن الله لم يستطع أن يشعر بنجاسته وإذ لم يشعر بحاجته مضى دون أن ينال شيئاً.

وإذا تبيّن ما أنت عليه من إثم وخطيئة، فلا تنتظر ريثما تصلح ذاتك، وكم من الناس يظنّون أنهم ليسوا أهلاً لأن يأتوا إلى المسيح. ألعلّك تحاول أن تصلح نفسك باجتهاد؟ و« هل يغيّر الكوشي جلده أو النمر رقطه، فأنتم أيضاً تقدرون أن تصنعوا خيراً أيها المتعلمون الشرّ » ارميا ١٣: ٢٣، فإنما معونتنا هي من الله فقط، فيجب ألا نتطلع إلى فرص أفضل، ويجب ألا ننتظر حتى نصير أحسن تطبيعاً وتخلّقاً، أو أشد اقتناعاً وتوثقاً، فإننا من أنفسنا لا نستطيع أن نفعل شيئاً، بل يجب أن نأتي إلى المسيح كما نحن.

فلا يخذعن أحد نفسه ويحسب أن الله من فرط محبته وكرم رحمته سيخلص أخيراً حتى رافضي نعمته. إنّ الخطيئة لمرض عضال، لا يدرك استحالة البرّ

منه إلا من نظر إليه في نور الصليب، فعلى الذين يتكلمون على رحمة المولى ويقولون إنه تعالى من جوده لا يهلك الخاطيء، أن يتأملوا ملياً في جلجثة، فلأن المسيح لم يجد سبيلاً لخلّاص الإنسان من قوة الخطية ونجاستها ولم يكن في إمكانه أن يعيد له الحياة الروحية، فالشركة مع القديسين، إلا بهذه التضحية العظمى، أخذ جرم الخطية على نفسه ومات عوضاً عن الخاطيء فتشهد محبة ابن الله وتخبر تضحيتُهُ العظمى بفداحة الخطية، وتعلن أن لا أمل بالنجاة منها ومن سلطانها، ولا رجاء بالحصول على حياة أبدية إلا بخضوع النفس للمخلص يسوع خضوعاً كاملاً.

ويحاول أحياناً الذين يصرون على خطاياهم، أن يبرروا أنفسهم بقولهم: «نحن مثل أولئك القوم الذين يدعون مسيحيين، فإنهم ليسوا بأفضل منا تضحية ونكرانا لذواتهم، وليسوا بأكثرَ منا حذراً وتعقلاً، بل هم مثلنا يحبّون الله والتدلّل» وهكذا يتعلّلون بأخطاء الآخرين، ممن يدعون مسيحيين، ولكن خطايا الآخرين ونقائصهم لا يمكن أن تبرر إنساناً لأن الله لم يعطنا مثلاً بشرياً ناقصاً، وإنما أعطانا ابنه القدوس لكي نتمثل به، فأولئك الذين ينعون على المسيحيين سلوكهم الخاطيء، هم جديرون بأن يُظهروا في حياتهم سلوكاً أفضل، ومثلاً أسمى وأنبل، لأنه إذا كانت لديهم فكرة سامية كهذه، بشأن ما يجب أن تكون عليه حياة المسيحي، أفلا تكون خطيتهم أكبر وأعظم، بلى، لأنهم عرفوا الحق ولم يتبعوه.

وحذار من أن تؤجّل أو تسوّف الإقلاع عن خطاياك، بل عليك أن تبادر إلى طلب تطهير قلبك بواسطة يسوع، فقد أخطأ هذه الحقيقة كثيرون، فحالت بهم الخسارة الأبدية، ولست أطيل الكلام في هذا المقام عن قصر الحياة وعدم

تحققنا من نهايتها، فالتأجيل خطر أشد وأدهى مما نتصور، لا يفتن إليه الناس كثيرا، وهو أننا يركوننا إلى التأجيل، نرفض توسلات روح الله القدوس، ونؤثو أن نبقى في الخطية على أن نسلم أنفسنا لله، فمن هنا يتأتى الخطر، ذلك لأن التساهل مع الخطية، مهما بدت لنا صغيرة، يعرضنا لخسارة لا حد لها، فنحن إن لم نقهرها، قهرتنا وأفضت بنا إلى الهلاك.

كان كلُّ من آدم وحواء يقنع نفسه، بأن أمرا يسيرا كالأكل من الشجرة المنهي عنها لا يمكن أن تترتب عليه نتائج مروعة وعواقب وخيمة، كالتى حذرهم منها الله، ولكن هذا الشيء اليسير إنما كان اعتداءً على ناموس الله، ذلك الناموس الثابت المقدس، وقد أدى هذا الاعتداء إلى فصل الإنسان عن الله، وتدفق عوامل الموت والشقاء إلى هذا العالم بكيفية تفوق كل وصف، ومنذ ذاك الحين أخذت صيحات الحزن والعيول، تتصاعد من جبل إلى جبل، وصارت الخليقة كلها تنن وتتمخض، نتيجة لتمرد الإنسان وعصيانته، ولقد شعرت السماء نفسها بنتائج عصيان الإنسان، وشقَّه عصا الطاعة على الله تعالى، وإن جلجثة لتذكرنا دائما بتلك التضحية العجيبة التى اقتضاها التكفير عن الاعتداء على ناموس الله، فيجب ألا ننظر إلى الخطية كأنها أمر تافه وهين، فإن كل ما نأتيه من أعمال التعدي، وكل ما نبديه من إهمال أو رفض لنعمة المسيح، لا بد من أن يكون له رد فعل في نفوسنا، إذ تتحجر قلوبنا، وتنحط مداركنا، فلا نصبح فقط أقل ميلا لتلبية دعوة المسيح، بل نصير أيضا أقل مقدرة على الخضوع لروح الله القدوس، والاستجابة لتوسلاته الرقيقة.

غير أنه يوجد أناس يحاولون تهدئة ضمائرهم المضطربة بظنهم أنهم قادرون على أن يغيروا مسلكهم الشرير متى شاؤوا، وأنه في استطاعتهم أن

يغيروا مجرى حياتهم حتى بعد استخفافهم بندايات الرحمة، وإصرارهم على مقاومة روح الله القدوس، وحتى بعد انحيازهم إلى جانب الشيطان، ولكن هذا كله لا يمكن أن يتم بمثل هذه السهولة، إذ تكون أخلاقهم قد تكيفت تماما، على مرّ الزمن، بما حصلوا عليه من الاختبار والتدريب، وتشكّلت بممارسة العادات والتجارب، حتى ليتعذّر على الكثيرين منهم أن يتقبلوا سمة المسيح.

فإنّ اية خصلة من الخصال الخاطئة، أو اية رغبة من الرغبات الآثمة، إذا تُركت وشأنها، كافية لأن تضعف تأثير الإجيل، وتبطل مفعوله. وإنّ كل تساهل نبديه نحو الإثم، من شأنه أن يزيد النفس إغراضا عن الله وصدودا عن الحق الإلهي، إنّما هو يحصد ما قد زرع، وليس بين دفتي الكتاب المقدس تحذيرٌ يدعونا إلى الخوف من الاستخفاف بالشرّ مثل قوله: «الشرير تأخذه آثامه، وبحبال خطيته يمسك» امثال ٥: ٢٢.

إنّ المسيح على أتم استعداد لتحريرنا من الخطية، ولكنّه لا يفرض علينا ذلك جبرا وقسرا، فإذا كانت إرادتنا - بسبب إصرارنا على الخطية وتماديها فيها - قد أصبحت تميل بكلّيتها إلى فعل الشر، وإذا كنا مصرّين على عدم قبول نعمته، فماذا عساه أن يفعل بنا بعد ذلك؟ فنحن إنّما نهلك أنفسنا بإصرارنا على رفض محبته، «هوذا الآن وقت مقبول، هوذا الآن يوم خلاص» «إن سمعتم صوته فلا تقسوا قلوبكم» ٢كورنثوس ٦: ٢؛ عبرانيين ٣: ٧ و٨

«إنّ الإنسان ينظر إلى العينين وأما الرب فإنّه ينظر إلى القلب» ١صموئيل ١٦: ٧. نعم، إنّّه ينظر إلى القلب البشري الذي تصطرع فيه شتّى العواطف والأحاسيس، القلب الجائل التائه، المملوء بكلّ زيف ونجاسة، فيعلم

بواعثه ونياته ومقاصده. فتوجه إليه أيها الخاطيء، واعرض أمامه نفسك بكل ما فيها من تلوث وتلطح، واكشف خفاياها أمام عينه التي ترى كل شيء، واصرخ مرددا قول المرنم: «اختبرني يا الله واعرف قلبي امتحني واعرف أفكارى. وانظر إن كان فيّ طريق باطل واهدني طريقا أبديا»
مزمور ١٣٩: ٢٣ و ٢٤.

كثيرون يقبلون الدين عقليا، ويحملون صورة التقوى، في حين أن القلب غير متجدد، فلنكن طلبتك: «قلبا نقيا اخلق فيّ يا الله وروحا مستقيما جدد في داخلي» مزمور ٥١: ١٠. ولكن كن أميناً لنفسك، باذلاً كل جد واهتمام، وتشبّث وإصرار، كما لو كنت مشرفاً على الهلاك، فهذا أمر يجب تسويته، ويجب أن يحلّ بينك وبين الله تعالى بصفة نهائية لأنّ التعلّق برجاء وهمي يكفي وحده لإهلاكنا.

وادرس كلمة الله بروح الصلاة، فإنّ فيها شريعته، وحياة المسيح، ومبادئ القداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب» عبرانيين ١٢: ١٤، فضلا عن أنّها تقنّنا بالخطية وتعلن لنا طريق الخلاص بوضوح وجلاء، فانتصت لها، باعتبارها صوت الله الذي يخاطب نفسك.

ومتى أدركت جسامة خطيتك، وتجلت لك نفسك على حقيقتها فلا تستسلم لليأس والفتور - فإنما لأجل الخطاة قد جاء المسيح من السماء، فيا له من حبّ فائق عجيب! إذ أننا لا نصلح الله، بل هو الذي «كان في المسيح، مصالحا العالم لنفسه» ٢ كورنثوس ٥: ١٩، فإنّ الله بحنوّ ومحبة هو الذي يستعطف أولاده الشاردين، ليردّهم عن زيغهم وضلالهم، وليس من أبٍ بشري يتسع

صبره وحلمه لاحتمال غلطات أولاده وأخطائهم، كما يفعل الله مع الذين يحاولون انقائهم، ومن مثل الله في عطفه وحنوه على الخاطيء الأثيم؟ وهل من شفاه بشرية سكبت هذه التوسلات الرقيقة التي بها يناشد الله الإنسان الضال؟ أجل، إن كل مواعيده وتحذيراته إن هي إلا تنسمات محبته التي لا ينطق بها.

عندما يأتي الشيطان ويوسوس لك أنك خاطيء، أنك خاطيء جداً، تطلع إلى فاديك وتحدث عن استحقاقاته، فإن التطلع إلى نوره مما يساعدك، ثم اعترف بخطيتك، واجدد عدو الخير، وقل له: « إن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلص الخطاة » ١كورنثوس ١: ١٥. لما سأل المسيح سمعان سؤالاً فيما يختص بمديونين كان أحدهما مديناً بمبلغ زهيد، والآخر كان مديناً بمبلغ جسيم جداً ولكن السيد سامح الإثنين، فأيهما يكون أكثر حباً لسيدته، أجاب سمعان قائلاً: « اظن الذي سامحه بالأكثر » فنحن كنا من أبدأ الخطاة، ولكن المسيح مات لكي نوهب الغفران، وإن استحقاقات ذبيحته وتضحيته لتكفي للتشفع فينا أمام الآب، والذين سامحهم الله بالكثير سيحبونه أكثر، وسيكونون أقرب الناس إلى عرشه، ليسبحوه على محبته العظمى، وتضحيته التي لا حد لها. فإننا، كلما ازدادنا إدراكاً لمحبة الله، تحققنا أكثر حقيقة محبته، واطلّعنا على مدى اتضاعه ومبلغ تضحيته، انفطرت قلوبنا حزناً وتأسفاً، وذابت أفئدتنا حنواً وتعطفاً.

الاعتراف

«من يكتُم خطاياه لا ينجح ومن يقرّ بها ويتركها يرحم» امثال ٢٨: ١٣. إذن فما يشترطه الله علينا، لكي يمنحنا رحمته ويهبنا عفوه وغفرانه، سهل وعادل ومعقول، فهو لا يطلب منا أمرا يسوعنا أو يكدرنا، ولا يفرض علينا تجشّم الأسفار وركوب الأخطار لأداء حجّ أو بلوغ مزار، ولا يأمرنا بأن نقوم بأعمال تقشّفية، وممارسات تعذيبية، تكفيراً عما اقترفناه من تعدّ وعصيان، وإتّما كلّ ما يطلبه الله منا لكي يشملنا برحمته هو الاعتراف بخطايانا والإقلاع عنها.

يقول الرسول: «اعترفوا بعضُكم لبعض بالزلات. وصلّوا بعضُكم لأجل بعض لكي تشفوا»، يعقوب ٥: ١٦، فلنعترف بخطايانا لله، فهو وحده قادر على أن يهبنا الغفران، ولننعترف أيضا بعضنا لبعض بالزلات، فإذا بدرت منك إساءةٌ نحو صديق لك أو جار، فمن حقّه عليك أن تقرّ له بخطئك كما أنّه من الواجب عليه هو أيضا أن يرضى ويصفح. ثم بعد ذلك عليك أن تلتمس عفوَ الله وغفرانه، لأنّ ذلك الأخ الذي اجترأت عليه وجرحتَه إتّما هو ملك الله، فإن أضرت به، فأنت تخطيء إلى الخالق، ومتى أتممت اعترافك لله، وأقررت بذنبك لأخيك، فإن القضية تصبح أمام الوسيط الحقيقي، ورئيس الكهنة الأعظم الذي هو «مجرب في كلّ شيء مثلنا، بلا خطية»، «قادر أن يرثي لضعفاتنا»، عبرانيين ٤: ١٥، وقادر أن يطهرنا من كل وصمة إثم. عبرانيين ٧: ٢٥.

اذن فأولئك الذين لم يذلّوا نفوسهم أمام الله، معترفين بذنبهم لم يقوموا بعد بأول شرط من شروط قبولهم، لأننا إن كنا لم نتب إلى الله توبة لا رجعة عنها ولا انتكاس، وإن كنا لم نعترف له بخطايانا بتذلل وانكسار، ولم ننظر إلى الإثم نظرة مُقَت واستنكار، فلا نكون حتى الآن قد طلبنا حقا الصفح والغفران، وإن كنا لم نطلب، فنحن لم نجد بعد سلام الله، فإنه لا يوجد سبب لعدم نيلنا غفرانا عن خطايانا الماضية سوى أننا غير راغبين في التذلل أمام الله والإذعان لكلمة الحق، فإن الله تعالى قد أعطانا تعليمات صريحة في هذا الشأن تبين لنا أن الاعتراف بالخطايا، سواء أكان بصفة فردية أم علنية، يجب أن يصدر عن القلب، ويجب أن يعترف به الفم ويردده اللسان، لأن الاعتراف ليس مجرد لغو أو كلام يلقى جزافا، وليس هو مجرد تصريح ينتزع من صاحبه انتزاعا، دون أن يدرك جسامته خطيته، ويشعر بشدة نفوره منها واستنكاره لها، وإنما الاعتراف الصحيح الذي يجد سبيلا إلى رحمة الله وعفوه، هو الذي يصدر من أعماق النفس ويصعد من صميم القلب، كما يقول المرنم: « قريب هو الرب من المنكسري القلوب ويخلص المنسحق الروح » مزمور ١٨: ٣٤.

فلا اعتراف الحقيقي هو الذي يتسم بالتحديد، ويتناول الاقرار بالخطايا على وجه التخصيص، وهذه الخطايا قد تكون من النوع الذي يجب عرضه أمام الله فقط، وقد تكون أيضا ذات صفة علنية، فيجب أن نعترف بها جهارا، ولكن في كل الحالات يجب أن يكون الاعتراف محددا ومنصبا على الاعتراف بالخطية التي ارتكبتها.

ففي زمن صموئيل ضلّ الإسرائيليون عن الله، وفقدوا إيمانهم به، وأخذوا يشكّون في قدرته على حمايتهم، والذود عن كيانهم، والدفاع عن قضيتهم،

حتى تحولت قلوبهم عن الحاكم الأعظم الذي بيده مقاليد الكون بأسره رغبة منهم في أن يكون لهم ملك أسوة بمن حولهم من الأمم والشعوب، وقد تم لهم ما أرادوا ولكنهم باؤوا بالفشل والخيبة، ولم يتذوقوا طعم السلام والاستقرار حتى أتوا إلى الله واعترفوا بما اقترفوه من جحود وإنكار، إذ قالوا لصموئيل: «صل عن عبيدك إلى الرب إلهك حتى لا نموت لأننا قد أضفنا إلى جميع خطايانا شرًا بطلبنا لأنفسنا ملكا» ١ صموئيل ١٢: ١٩، فالاسرائيليون إذ اقتنعوا بأن نكرانهم للجميل هو الذي أقصاهم عن الله، وأدى إلى فصم عرى الشركة بينه وبينهم، لم يروا مندوحة عن تحديد اعترافهم بذكر هذه الخطية بالذات، إذ قالوا: «لأننا قد أضفنا إلى جميع خطايانا شرًا بطلبنا لأنفسنا ملكا».

غير أن الاعتراف لا يكون مقبولا عند الله، إلا إذا كان مقترنا بالتوبة والإصلاح، فيجب أن تتناول الحياة تغييرات ظاهرة، ويجب العمل على نبذ كل شيء يسيء إلى الله تعالى، ولن يتأتى كل هذا إلا نتيجة لحزن حقيقي وتوبة خالصة، وأما الإصلاح الذي يتعين علينا أن نقوم به من جانبنا فقد بيّنه النبي إشعياء جليا وواضحا في قوله: « اغتسلوا تنقوا، اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني، كفوا عن فعل الشر، تعلموا فعل الخير، اطلبوا الحق، انصفوا المظلوم، اقصوا لليتيم، حاموا عن الأرملة»، إشعياء ١٦: ١ و١٧، وكذلك نوّه به حزقيال في قوله: «ان رد الشرير الرهن وعوّض عن المغتصب، وسلك في فرائض الحياة بلا عمل اثم فانه حياة يحيا. لا يموت» حزقيال ٣٣: ١٥. وأيضا فصله الرسول بولس في قوله: «فانه هوذا حزنكم هذا عينه بحسب مشيئة الله، كم انشأ فيكم من الاجتهاد بل من الاحتجاج بل من الغيظ بل من الخوف بل من الشوق بل من الغيرة بل من الانتقام. في كل شيء أظهرتم أنفسكم أنكم أبرياء في هذا الأمر» ٢ كورنثوس ١١: ٧.

فالخطية متى أماتت الشعور الأدبي، تجعل فاعل الإثم لا يرى ما في صفاته من نقائص وعيوب، ولا يتحقق فداحة الشر الذي ارتكبه، فما لم يخضع لقوة الروح القدس المقنعة، يظل غير مدرك لخطيته إدراكا كاملا، وتكون اعترافاته خالية من روح الجد والإخلاص إذ يحاول عند كل اعتراف أن يلتمس لنفسه الأعذار، ناسبا أخطائه إلى الظروف التي أحاطت به، والتي لولها لما ارتكب مثل هذا الذنب الذي يلام عليه.

فإنَّ آدم وحواء بعد أن أكلا من الشجرة المنهيَّ عنها، شعرا بالخزي والعار وأحسَّا بالرهبة والخوف، فكان جلُّ همهما في مبدأ الأمر منصرفا إلى تلمّس وسيلة الاعتذار عن خطيتهما، والتخلص من حكم الموت الرهيب، فلما بدأ الله يسألهما عن الخطية التي اقترفاها، أخذ آدم ينحي باللائمة على الله تعالى وعلى المرأة، إذ قال: «المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت» تكوين ٣: ١٢، وكذلك المرأة بدورها أخذت تنحي اللائمة على الحية، إذ قالت: «الحية غرّتني فأكلت» تكوين ٣: ١٣، فكأنَّي بحواء تعترض على الله تعالى قائلة لماذا خلقت الحية ولماذا تركتها تتسلل إلى جنة عدن؟ فهي تلقي التبعة على الله سبحانه، وتجعله مسؤولا عن زلتهما وسقطتهما، ولا عجب في ذلك فإن روح التنصّل من المسؤولية وتبرئة أنفسنا تولدت في الأصل عند إبليس الملقب بأبي الكذاب ومنه سرت إلى كل ذرية آدم وحواء، فمثل هذه الاعترافات ليست من إحياء الروح الإلهي، وبالتالي فهي غير مقبولة البتة عند الله، أمّا التوبة الصحيحة فإنها تجعل الإنسان يحمل ذنبه بنفسه، ويقرّ به في غير خداع ونفاق، كما فعل ذلك العشار الذي لم يجرؤ أن يرفع وجهه نحو السماء، بل قرع على صدره وصرخ قائلا: «اللهم ارحمني أنا الخاطيء» فعاد إلى بيته

مبررا، وهكذا يتبرر كل من اعترف بذنبه لأن يسوع نفسه يتشفع بدمه في كل نفس تائبة.

وإن الأمثلة الواردة في كلمة الله بشأن التوبة الحقيقية توضح لنا روح الاعتراف الصحيح الخالي من كل تعلل وتصل، وتبين لنا الإقرار الخالص الذي لا يشوبه البر الذاتي، فيولس، مثلا، لم يحاول قط ان يبيريء نفسه مما اقترفه ضد الكنيسة، بل هو يصور خطيته كأشد ما تكون اسودادا وإظلاما دون أن يحاول استصغار ذنبه، إذ يقول: « وفعلت ذلك أيضا في أورشليم، فحبست في سجون كثيرين من القديسين، آخذاً السلطان من قبل رؤساء الكهنة، ولما كلنوا يُقتلون ألقيت قرعة بذلك، وفي كل المجامع كنت ... أطردهم إلى المدن التي في الخارج» أعمال ٢٦: ١٠ و ١١، بل ولم يتردد أن يقول: « صادقة هي الكلمة ومستحقة كل قبول أن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلص الخطاة الذين أولهم أنا» اتيموثاوس ١: ١٥.

أجل، فإنما بالتواضع والانكسار، والتوبة والاستغفار يستطيع الخاطيء أن يقدر شيئا من محبة الله، وشيئا مما انفق في جلجثة، فيأتي إلى الله كما يأتي إلى أبيه، معترفا بكل ذنوبه، وتائبا عن كل خطاياها، لأنه مكتوب: « إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل اثم» ايوحنا ١: ٩.

التسليم

بهذا وعدنا الله: «تطلبونني فتجدونني إذ تطلبونني بكل قلوبكم» إرميا ٢٩: ١٣، فإن لم نطلب الله بكل قلوبنا لا نجده، وإن لم ندع له إزعانا كاملا لا نتغير عن شكلنا لنكون مشابهين صورته ومثاله، لأننا بالطبيعة أعداء الله، وقد وصفنا الروح القدس بأننا أموات «بالذنوب والخطايا» افسس ١: ٢، وشخص حالتنا فقال: «كل الرأس مريض وكل القلب سقيم ... ليس فيه صحة» إشعيا ١: ٥ و٦، فنحن ممسكون في فخاخ إبليس مقتنصون لإرادته، تيموثاوس ٢: ٢٦، غير أن الله تعالى يريد شفاءنا ويرغب في تحريرنا، وهما أمران يستوجبان تغييرا شاملا في صفاتنا وتجديدا كاملا في طبيعتنا ولا يصيران إلا بتسليم قلوبنا لله تسليما تاما.

نعم، إن محاربة الأثرة فينا هي أعظم معركة دارت رحاها إطلاقا، لأن تسليم النفس لله وإخضاع المشيئة لمشيئته يستلزمان حربا عوانا وصراعا عنيفا، والنفس لا تتجدد في القداسة ما لم تخضع لربها خضوعا مطلقا.

غير أن سياسة الله ليست، كما يريد أن يصورها لنا الشيطان، مؤسسة على تحكم غاشم يتطلب منا تسليما أعمى، يناشد الله عقولنا ويهيبُ بضماننا إذ يدعونا قائلا، «هلم نتحاجج» إشعيا ١: ١٨، فهو تعالى يأبى أن نتعبد له قسرا واضطارا، لأن استعمال الوسائل القهرية والأساليب الجبرية لمما يعيق تقدمنا الفكري وتحسننا الخلقي ويجعل منا آلة صماء، فما لغرض كهذا خلقنا الله، بل

ليسمو الإنسان الذي تَوَجَّ به عمل الخلق إلى أقصى مراتب الرقي وأسمى غايات التقدم، جاعلا أماننا ذروة الطوبى التي نبلغها بنعمته، وداعيا إيانا أن نبادر بتسليم أنفسنا له لكي يعمل فينا إرادته ويتم فينا مشيئته فالأمر مفوض لنا أن نختار بين بقائنا في عبودية الخطية، وبين التمتع بحرية مجد أولاد الله بنعمته تعالى.

إن تسليم ذواتنا لله ليستلزم حتما أن نتخلى عن كل شيء من شأنه أن يفصلنا عنه، كما أوضح ذلك يسوع في حديثه مع تلاميذه، إذ قال: « فكلّك كل واحد منكم لا يترك جميع أمواله لا يقدر أن يكون لي تلميذاً » لوقا ١٤: ٣٣، فكل شيء يحوّل القلب عن الله يجب نبذه وتركه، فالمال صنم يتعبد له كثيرون ممن يتهافتون على الثراء، ومحبة المال هي السلسلة الذهبية التي يستأسرهم الشيطان بها، وآخرون يتعبدون للشهرة والجاه العالمي، وآخرون يتعبدون لصنم الدعة والراحة والتحلل من التبعات والفرار من المسؤوليات، فكل هذه أغلال يجب تحطيمها، لأننا لا نقدر أن نجزيء حياتنا بين الله والعالم، بل لا نكون أولاداً لله حتى نسلم أنفسنا له تسليمًا تاماً، ومن الناس من يدّعون بأنهم يعبدون الله، بينما هم لا يعتمدون إلا على برّهم الذاتي، فهم يريدون أن يحفظوا الناموس، ويمارسوا حياة الفضيلة، ويحصلوا على الخلاص، بمحض اتكالهم على جهودهم الشخصية، دون أن يكون الباعث على ذلك كله محبة المسيح، فمثل هذه الديانة لا تغني قليلاً، ولكن متى حل المسيح في حياتنا، امتلأت قلوبنا بمحبته، واعتبّطت نفوسنا بعشرته، فلا نلبث أن ننسى ذواتنا، ونجعله هو مركز تفكيرنا ومحور تأملاتنا، فمن ثم تكون بواعثنا كلها مدفوعة بمحبة المسيح، لأن الذين تحصرهم محبة الله لا يعودون ينظرون إلى الحياة المسيحية كأنها فرض يؤدي أو واجب يقضى، لا يحاول أن يظفروا منها بأكبر مغنم وأقل مغرم،

بل تكون غايتهم القصوى هي التشبه بالمسيح، والعمل على مشيئته وإرادته، مبدئين من الاهتمام ما يتفق والغرض الذي ينشدونه، فإن الاعتراف بالمسيح إذا لم يكن صادرا عن حب عميق فإنه لا يعدو أن يكون مجرد شفقة لسانية، وممارسات شكلية، وحياة كلها عبودية.

افتشعر بأنه كثير عليك أن تضحي بكل شيء لأجل المسيح؟ إذن فسل نفسك: ماذا أعطى المسيح لأجلي؟ إنه بذل كل شيء لفدائنا، ووقف علينا حبّه وحياته وآلامه. أفنصّ عليه بقلوبنا، ونحن لسنا أهلا لمحبة عظمى كهذه؟ وإنما لكوننا نتمتع في كل لحظة من لحظات حياتنا بالاشتراك في بركاته، صرنا لا ندرك تماما عمق الجهل والبؤس اللذين أنقذنا منهما. وهل نستطيع أن نراه مطعوناً بخطايانا، ثم نزدري محبته وتضحيته؟ وهل نستطيع أن نرى تواضعه الذي لا حدّ له ثم نتذمّر لأنه لا سبيل إلى دخول الحياة إلا بالصراع وإذلال النفس؟

فكم من أناس ذوي قلوب متكبرة يتساءلون قائلين: وما ضرورة التذلل والاتضاع، والحزن والتوبة؟ وهل يلزم أن نمارس كل هذه الأمور حتى يؤكد الله لنا قبولنا؟ وردّا على هذا السؤال لا يسعني إلا أن أشير إلى المسيح نفسه الذي كان منزّها عن الخطية، فضلا عن كونه رئيس السماء، ولكنه إذ ناب عن جنسنا الأثيم « صار خطية لأجلنا » و « أحصى مع أثمة، وهو حمل خطية كثيرين وشفع في المذنبين » إشعياء ٥٣: ١٢.

ولكن ما هو هذا « الكل » المطلوب منا أن نقدمه لله؟ أنه القلب، وما هو إلا قلب ملوّث بالاثم والخطية يريد المسيح أن يطهره بدمه الزكي، ويخلصه بمحبته

الفائقة! ومع ذلك فالناس يستصعبون أن يعطوا هذا « الكل » لله، فواخلجته وواحسرتاه!

على أن الله تعالى لا يطلب منا أي شيء من مصلحتنا أن نستبقه لأنفسنا، لأنه في كل ما يعمل به ويجريه، إنما يضع نصب عينيه خير خلائقه وصالح بنييه، فيا ليت أولئك الذين لم يختاروا المسيح بعد، يدركون أن لديه أشياء فضلى يريد أن يمنحهم إياها، وأن هذه الأشياء تفوق كثيرا ما ينشدونه هم لأنفسهم، فإن الإنسان حين يفكر ضد مشيئة الله، ويعمل ضد إرادته تعالى، إنما يسيء إلى نفسه ويجحف بصالحه، لأن الفرع الحقيقي لا يتأتى بالسير في الطريق المحذور، والخروج على وصية الله الذي يعرف تماما كل ما يؤول لخير خلائقه، فإن طريق الإثم والتعدي إنما ينتهي بنا إلى البؤس والتردي.

وإنه لمن الخطأ أن نظن أن الله تعالى يرضى بأن يرى أولاده يتألمون، لأن السماء جميعها يهتمها إسعاد الإنسان، كما أن أبانا السماوي لا يسد مسالك السعادة أمام أحد من خلائقه، وإنما هو يهيب بنا أن نلج عن الانغماس في اللذات التي تفضي بنا إلى اليأس والشقاء، فضلا عن أنها توصلنا بأمان باب السعادة، وتحول دون دخولنا السماء، كذلك يسوع الفادي على استعداد لأن يقبلنا كما نحن، على ما نحن عليه من ضعف ونقص وعوز، وهو لن يقتصر فقط على تطهيرنا من الخطية ومنحنا الفداء بدمه، بل هو أيضا على استعداد لأن يشبع رغائب كل الذين يلبون دعوته ويحملون نيره، إذ هو يريد أن يمنح الراحة والسلام لكل من يأتي إليه ملتصبا خبز الحياة، وإنما هو يتطلب منا أن نقوم بتلك الواجبات التي تقود خطواتنا إلى أوج السعادة والهناء، مما يستحيل

بلوغه على كل من يخالف وصية الله وعلى ذلك فإن حياة البهجة الحقيقية لن تنهيا إلا إذا تصوّر المسيح فينا « رجاء المجد ».

ولرب سائل: كيف أسلم نفسي لله؟ فأنت إذا راغب في تسليم نفسك ولكنك تشعر بعجزك الروحي وقصورك الأدبي، إذ ترى نفسك مُستعبداً للشكوك المقلقة، ومستأسراً للعادات الشريرة، متشبثاً بحبال خطاياك، حتى صارت عهودك محلولة، وعزيمتك مفلولة، مما جعلك ترتاب من إخلاصك، وتشكك في إمكانية قبولك لدى الله، ومع ذلك، فيجب ألا تقنط أو تيأس، لأن كل ما يلزمك في مثل هذا الموقف، هو أن تفهم قوة الإرادة وتعرفها على الوجه الصحيح، فهي عبارة عن القوة الضابطة التي أوجدها الله في طبيعة الإنسان، وهي القوة التي بها نقرر وبها نختار، فيتوقف مصيرك على عمل الإرادة، وعلى حسن توجيهها واستخدامها، فإن كنت عاجزاً عن تجديد قلبك وتغيير عواطفك، فما أنت بعاجز عن أن تختار، وما أنت بقاصر عن أن تسلم لله نفسك واراادتك، ومتى سلمت له ذاتك فإنه لا يلبث أن يعمل في قلبك لأن تريد وأن تعمل من أجل المسرة، وعندئذ تصبح طبيعتك تحت سيطرة الروح، ويصبح المسيح محور تفكيرك، وقبلّة عواطفك وشعورك.

ولئن تكن الرغبة في الحصول على الصلاح والقداسة هي عين الصواب، إلا أنه يجب أن لا نقف في جهادنا عند حدّ الرغبة فقط، إذ أن كثيرين سيهلكون لأن كل همهم كان مقتصرًا على التعلل بالرغبة والأمل، دون أن يسلموا أنفسهم لله، ويختاروا المسيح نصيباً لهم.

ولكنك إذا أحسنت استخدام إرادتك، وسلّمت نفسك للمسيح، فلا بدّ من أن يشمل حياتك تغييرٌ كليّ، وتصبح متحالفا مع القوّات السماوية التي تفوق كلّ رياسة وسلطان، فعندئذ يمدّك الله بكلّ قوّة علويّة، ليحفظك ويثبّتك، وهكذا بخضوعك الدائم لله، تستطيع أن تحيا حياة جديدة، حياة الإيمان العامل بالمحبة.

الإيمان

إذا أحيا الروح القدس ضميرك أدركت شيئا من شرّ الخطية وقوّتها وجرمها وويلاتها، فعافتها نفسك، لأنك شعرت بأنها قد فصلتك عن الله واستعبدتك بسلطانها، وكلّما حاولت أن تتحرر منها تأكّدت عجزك وتثبّت قصورك، وعرفت أنّ بواعثك دنسة وقلبك نجيسٌ وحياتك مليئةٌ من الأثرة، مفعمةٌ بالخطية، فأصبحت الآن تتوق إلى الغفران وتشتاق إلى التطهير والعنق، فما عساك أن تفعل لكي تصير في وفاق مع الله وتتصف بصفاته؟

إنّ مسيس حاجتك هو إلى السلام، سلام الله الناشيء عن غفران الخطية وانسكاب المحبة في نفسك، ولا تقدر أن تشتري هذا السلام بالمال ولا تستطيع أن تناله بالعقل ولا أن تدركه بالحكمة، ومجهوداتك تخبّب أملك في الحصول عليه، ومع ذلك هو في طاقة يدك، لأنّ الله قد وهب لك مجانا « بلا فضة وبلا ثمن»، إشعياء ٥٥: ١، كما قال أيضا «إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج. إن كانت حمراء كالدودي تصير كالصوف» إشعياء ١: ١٨، وها أنت قد اعترفت بخطاياك، وتحولت عنها في قلبك، وعزمت أن تسلم نفسك لله، فاذهب إليه تعالى واطلب أن يغسلك من ذنوبك ويجعل فيك قلبا جديدا، ثم صدق أنّ الرب قد فعل هذا كلّه لأنّه وعد به، فيكون لك، وقد علّم يسوع بهذه الحقيقة لما كان هنا على الأرض قائلا: «كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم»، مرقس ١١: ٢٤. شفى يسوع المرضى إذ آمنوا بقدرته فساعدهم في ما كانوا

ينظرون ليُكسبهم الثقة به في ما لم ينظروا والإيمان بقدرته على غفران الخطايا أيضاً، كما صار في حادثة شفاء المفلوج مثلاً، إذ قال للجمهور: « لكي تعلموا أنّ لابن الإنسان على الأرض أن يغفر الخطايا»، حينئذ قال للمفلوج « قم، حمل فراشك واذهب إلى بيتك»، متى ٩: ٦، وأيدّ البشير يوحنا هذه الحقيقة وهو يدوّن الآيات التي صنعها يسوع إذ قال « وأما هذه فقد كتبت لتؤمنوا أنّ يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه»، يوحنا ٢٠: ٣١.

من القصص التي رواها البشراء بكل بساطة عن كيف شفى يسوع المرضى يمكننا أن نتعلّم شيئاً عن الإيمان به لغفران الخطية. فلنرجع إذاً إلى المريض المضجع عند بركة بيت حسدا. كان ذلك المسكين ضعيفاً جداً وقد بلغ العجز منه حدّاً لم يستطع عنده أن يستعمل أوصاله لمدة ثمان وثلاثين سنة، ومع ذلك أمره يسوع قائلاً: « قم، حمل سريرك وامش»، يوحنا ٥: ٨، ولكنه لم يحتج بل صدّق كلمة المسيح وآمن أنه قد شفى وفي الحال همّ بالقيام، فقام، وأراد أن يمشي، فمشى. أطاع كلمة المسيح فأعطاه الله القدرة وبريء البرء التام.

كذلك خاطيء أنت، ولا تستطيع أن تكفر عن تعديّاتك السالفة، ولا تقدر أن تغيّر قلبك أو أن تقدس نفسك، ولكن قد وعدك الله بأن يصنع هذا كله لأجلك في المسيح، وأنت تؤمن بهذا وتعترف بخطاياك وتسلم ذاتك لله، وتريد أن تطيعه تعالى، فحالما تؤمن بالوعد وتصدق أن خطاياك قد غُفرت وقلبك تطهر، يحقق الله لك مواعيده، ويعطيك القوة كما أعطى المسيح مريض بيت حسدا القوة على المشي عندما آمن انه قد شفى، فالأمر يصبح واقعا، وأنت قد شفيت، إن كنت قد آمنت.

فلا تنتظر حتى تشعر بأنك قد شفيت، بل قل أنا آمنت، وقد صار الشفاء لا لاني شعرت به، بل لأن الله قد وعد به.

قال يسوع، «كل ما تطلبونه حينما تصلون، فأمنوا أن تنالوه، فيكون لكم»، مرقس ١١: ٢٤، على أن الشرط الوحيد لإتمام هذا الوعد هو أن تكون الطلبة بحسب مشيئة الله، والله يريد أن يطهرَك من الخطية، وأن يتبنَّاك أيضا ابنا له، وأن يقدرَك على حياة القداسة، فاطلب كل هذه البركات مؤمنا بأن تنالها، بل اشكر الله أنك قد نلتها. فاطلب كل هذه البركات مؤمنا بأن تنالها، بل اشكر الله أنك قد نلتها. إنه من حقك أن تسلم نفسك للمسيح ليطهرَك، فتقف إذ ذاك أمام الشريعة التي تعدت مناهيها غير خجل وغير مُدان، لأن «لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح» رومية ٨: ١.

ومن الآن فصاعدا أنت لست لذاتك، لأنك اشتريت بثمن «لا بأشياء تفنى، بفضة أو ذهب ... بل بدم كريم كما من حمل بلا عيب ولا دنس، دم المسيح»، ١ بطرس ١: ١٨ و ١٩. بإيمانك بالله قد ولد الروح القدس حياة جديدة في قلبك، فصرت طفلا في أسرة الله الذي يحبك كما يحب ابنه يسوع.

وإذ قد سلمت نفسك ليسوع، فلا تتردد عنه ولا تبتعد، بل قل في نفسك كل يوم، «إني للمسيح، وقد سلمته ذاتي»، واطلب إليه أن يمنحك من روحه ويحفظك بنعمته، كما صرت ابنا له، بتسليمه نفسك وإيمانك به، فكَذلك تحيا به، حسب قول الرسول «كما قبلتم المسيح يسوع الرب اسلكوا فيه»، كولوسي ٢: ٦.

يشعر البعض بأنهم، قبل أن يصير لهم الحق في طلب البركة، يجب أن يجتازوا امتحانا يُثبتون فيه أنهم قد أصلحوا حياتهم، بيد أنّ الحقيقة هي أنّ لهم الحق في أن يطلبوا البركة الآن، بل هم، إن لم ينالوا نعمة المسيح، وإن لم يأخذوا من روحه، لا يستطيعون أن يقاوموا الشرّ، زد على ذلك أنّه يجب أن نأتي إلى المسيح كما نحن - خاطئين عاجزين محتاجين، فلنأتِ بضعفاتنا وجهالاتنا ونجاساتنا، ونرتمي عند قدميه في توبة خاضعين، لأنّه من دواعي فخر المسيح ومجده، أن يحتضننا بذراعي محبته، ويضمّد جروحنا وينقّي قلوبنا.

إن الكثيرين لا ينالون الخلاص لأنهم لا يصدقون أنّ عفو المسيح يشملهم هم شخصياً، ولا يثقون بأنّ الله يقصدهم بالذات في مواعيده. بيد أنّه من حقّ كل فرد قد قام بالشروط أن يعرف ويتأكد أنّ جميع خطاياه قد غُفرت مجّاناً، فإن كنت تشكّ في أنّ الله يعينك بمواعيده، انزع عن نفسك هذا الشكّ وآمن بأنّ مواعيد الله إنّما هي لكل مذنب تائب بالحق، بل إنّّه تعالى قد أعدّ في المسيح نعماً وبركات يقدّمها لكل مؤمن محتاج بواسطة الملائكة الطائعين أمره، وليس من مذنب قد بلغت خطيئته واثميّته حدّاً لا يجد معه القوّة والطهارة والبرّ في المسيح الذي مات لأجله، فإنّ الفادي لفي انتظار الخاطيء الأثيم لكي ينزع هو عنه الثياب القذرة ويلبسه ثياباً مزخرفة، فقد امر بحياته لا بموته.

إنّ الله لا يعاملنا كما يعامل الناس بعضهم بعضاً، إذ أنّ أفكاره أفكار رحمة ومحبة وشفقة كما صرح بذلك قائلاً: « ليترك الشرير طريقه ورجل الإثم أفكاره، وليتب إلى الرب فيرحمه، وإلى الهنا لأنه يكثر الغفران » و « قد محوت كغيم ذنوبك وكسحابة خطاياك » [إشعيا ٥٥: ٧؛ ٤٤: ٢٢].

«لأني لا أسرّ بموت من يموت يقول السيد الرب، فارجعوا واحيوا»
 حزقيال ١٨: ٣٢، ولكن الشيطان واقف لنا بالمرصاد ليسلب نفوسنا ثقتنا بهذه
 التأكيدات المباركة، ويُطفي فينا كلّ بارقة وكلّ بصيص من الرجاء، ويحجز عنّا
 كلّ شعاع من النور، فلا تسمح له بأن يفوز بشيء مما يضره لك، ولا تعطه
 اذناً صاغية، بل قل له «ان يسوع قد مات عني لكي أحيأنا، فهو إذن يحبني
 ولا يشاء أن أموت، ولي أبُ رحيمٌ في السماء، ولئن كنت قد أسأتُ إلى محبته
 وبذرتُ بإسراف بركاته»، فإنّي «أقوم وأذهب إلى أبي وأقول له يا أبي اخطأت
 إلى السماء وقدامك ولست مستحقاً بعد أن ادعى لك ابناً، اجعلني كأحد أجراءك»،
 لوقا ١٥: ١٨ و١٩. ولا شك في أنّ الله الآب يقبل الابن الضال إذا رجع إليه،
 «وإذ لم يزل بعيداً رآه أبوه، فتحنن وركض ووقع على عنقه وقبله».

إنّ مثل الابن الضال، وإن كان بالغاً في اللطف والرفقة، ليقصر عن وصف
 شفقة الله الأبوية التي لا تعرف حداً، وقد قال على لسان إرميا، « محبة أبدية
 أحببتك»، إرميا ٣: ٣١، وعلى لسان هوشع « كنت أجدبهم ... بربط المحبة»،
 هوشع ٤: ١١، فبينما الخاطيء لا يزال بعيداً عن بيت الآب يبذر أمواله في بلاد
 بعيدة، يتقد قلبُ الابن شوقاً إليه، وكل ما يتولّد في قلب الخاطيء من رغبة في
 الرجوع إلى بيت الآب إنما هو من مناجاة الروح فيه وتوسلاته إليه ليرجع إلى
 قلب أبيه المحب.

ابعدَ هذه المواعيد الغنية السخية التي جعلها الله بين أيدينا، تدع للشك مكاناً
 في نفسك؟ وهل تتصور أنّ الله يُبدي صدوداً وجفاءً لخطيء تتوق نفسه إلى
 أن يترك خطاياهم ويرجع إليه نادماً تائباً. تبأ لكلّ فكرة كهذه، لأنّه لا شيء أضر
 لنفسك من مثل هذه الأوهام، فإن الآب السماوي، وإن كان يبغض الخطيئة، إلا

أنّه يحبّ الخاطيء، ولذلك بذل نفسه في شخص المسيح لكي يخلص كل من أراد الخلاص، ويمنحه الطوبى في ملكوت المجد، وهل من لغة تعبر عن محبته أرق وأقوى من قوله، «هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابنَ بطنها، حتى هؤلاء ينسين، وأنا لا أنساك»، إشعياء ٤٩: ١٥.

فانتصب يا من عراك الشك والخوف، فإن يسوع حيّ ليشفع فيك، واشكر الله الذي بذل ابنه الحبيب لأجلك، وتوسل إليه ان لا يكون موته عنك عبثاً، فلن الروح يدعوك اليوم مناشدا إياك أن تأتي بكل قلبك إلى يسوع، وتطلب إليه أن يمنحك هباته وبركاته.

وإذ تقرأ المواعيد فاذاكر أنها تعبّر عن رحمة وشفقة لا توصفان، فإن قلب تلك المحبة العجيبة ليحنو على الخاطيء ويحوطه بكل عوامل الرأفة والحنان، ونحن قد صار «فيه لنا الفداء بدمه غفران الخطايا» افسس ١: ٧، ولم يبق عليك إلا أن تؤمن بأن الله هو عونك وقوتك، وهو يريد أن يستعيد صورته الأدبية في الإحسان، فكلما اقتربت منه بالاعتراف والتوبة، اقترب هو أيضا منك بالرحمة والغفران.

الطاعة

«إذاً، ان كان احد في المسيح فهو خليفة جديدة، الأشياء العتيقة قد مضت، هوذا الكل قد صار جديدا» ٢كورنثوس ٥: ١٧.

قد لا يستطيع شخص أن يعرف تماما الوقت الذي بدأ فيه أن يتجدد، وقد لا يستطيع أيضا أن يحدد المكان أو الأحوال التي لا بدت عملية التجديد ولكن هذا لا يعني أنه غير متجدد، فقد قال المسيح لنيقوديموس، «الريح تهب حيث تشاء وتسمع صوتها لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب. هكذا كل من ولد من الروح» يوحنا ٣: ٨، وكما أن الريح لا تُرى بالعين بل تُعرف بتأثيرها وقوتها، فكذا عمل روح الله في قلب الإنسان، فهذه القوة المجددة، التي لا يمكن أن تُرى بالعين البشرية، تولد في النفس حياة روحية، وتجعل من الإنسان مخلوقا جديدا على صورة الله، وفيما يكون الروح في الداخل سرّياً خفياً، إذا بتأثيره في الحياة الخارجية يبدو ظاهراً جلياً، وكل تجديد يتم في قلب الإنسان بفعل الروح القدس، تتجلى آثاره للعيان، فلئن كان عمل الروح فينا غير منظور إلا أن حياتنا تنبئ به، وأعمالنا تدلّ عليه، وإذا حل في قلوبنا روح المسيح، فلا بدّ من أن يكون فرق واضح بين ما كنا عليه، وما صرنا اليه، غير أن من المصادفات، صالحة كانت أم طالحة، لا تكشف القناع عن حقيقة أخلاق الإنسان، وإنما يعلنها اتجاه حياته الدائم وأعماله وكلماته المعتادة.

نعم، قد يستطيع الإنسان أن يبدو للناس في مظهرٍ لائقٍ دون أن يكون متجداً بنعمة الله، وقد ينشئ حبَّ النفوذ والرغبة في إعجاب الغير نظاماً جميلاً في حياته، وقد يؤدي به الاعتداد بالذات إلى تجنب الشرِّ وشبه الشرِّ، «وقد يوجد البخيل»، فكيف إذن، والحالة هذه، نستطيع أن نحكم في أننا قد تجدنا أم لا؟

ولكن لمن القلب؟ وفي من نفكر وعنّ نتحدث؟ وبمن نتعلّق حباً واشتياقاً، ولأجل من نبذل أقصى الجهود؟ لأننا إن كنا للمسيح فيه نلهج واسمه نذكرُ وله نقفُ جميع مالنا، وإننا لنشتاقُ إذ ذاك إلى أن نكون مثله، ونقتفي آثاره، ونمتليء من روحه، ونطلب رضاه في كل شيء.

فكل الذين يصيرون في المسيح خليفة جديدة يظهرون في حياتهم أثمار الروح التي هي، «محبة، فرح، سلام، طول اناة، لطف، صلاح، إيمان، وداعة، تعفف»، غلاطية ٥: ٢٢ و٢٣، فلا يعودون يسلكون حسب شهواتهم السابقة، بل بإيمان ابن الله يتبعون خطواته، ويحملون صفاته وسجاياه، ويظهرون أنفسهم كما هو طاهر، حتى لقد تراهم، فإذا هم يحبّون ما كانوا يكرهون، ويكرهون ما كانوا يحبّون، فالداعر الفاجر تراه وإذا هو قديس طاهر، والمتكبر الفخور تراه فإذا هو متواضع شكور، ومدمن الخمر تراه فإذا هو قد طرح الشرَّ جانباً، وحول اهتمامه إلى إنسان «القلب الخفي»، و «زينة الروح الوديع الهاديء الذي هو قدام الله كثير الثمن»، ١ بطرس ٣: ٣ و٤.

فليس من دليل على التوبة الصحيحة، إلا اذا شمل الحياة كلّها تغيير فعلي وإصلاح حقيقي، فاذا قام الخاطيء برد ما ارتهنه، وتعويض ما استبله

والاعتراف بما اقترافه وارتكبه، واطهر محبته لله، ولأخيه الإنسان، ليعلم أنه قد انتقل من الموت إلى الحياة.

وعندما نأتي إلى المسيح ، كخطاة وأثمة ، ونحظى بنعمة الغفران، تتفجر في قلوبنا ينابيع المحبة، فيصبح نيره هيناً، وحمله خفيفاً، ويصير الواجب لذة، وتصبح التضحية غبطة ومسرة، ونرى الطريق الذي كان يبدو لنا مظلاً مخيفاً فإذا هو قد أصبح مزداناً بشمس البر، ومغموراً بأشعتها الجميلة.

يتجلى في طباع المسيح سمو صفاته وكمال سجاياه، فهو سر بأن يفعل مشيئة الله، ولذلك ملكت حياته المحبة لله والغيرة على مجده، بل زانت المحبة جميع أعماله وحلت في كل تصرفاته، وليست المحبة إلا من الله، فلا يستطيع قلب الخاطيء أن ينشئها ولا أن يحويها، إنما هي تسود فقط في القلب الذي يملك فيه يسوع، فنحن نحبه، لأنه هو أحبنا أولاً، والمحبة مبدأ العمل في كل متجدد بنعمة الله، تلطف سجاياه، وتقمع أهواءه، وتملك براءته وتستأصل عداوته، وترقق عواطفه، فهذه المحبة، إن عززتها النفس، تزين الحياة وتؤثر تأثيراً جميلاً في كل من يراها.

يتعرض أولاد الله، ولا سيما حديثو الإيمان منهم، لغلطين يجب ان يكونوا على حذر منهما، أولاهما، وقد تقدّم الكلام فيها، غلطة الاعتماد على جهودهم ظناً منهم أنهم يصيرون على وئام مع الله بأعمالهم، والحقيقة هي أن الذي يطلب أن يتقدس بحفظ ناموس الله يطلب المستحيل، فالأعمال التي يقوم بها

الإنسان بدون المسيح تتلوّث بالأثرة والخطية، لأنّ التقديس إنما هو بالإيمان بنعمة المسيح وحدها.

وأما الغلطة الثانية فهي نقيضة الأولى، ولا تقل عنها خطرا، وهي زعم بعضهم أن الإيمان بالمسيح قد حرر المؤمن من واجب الطاعة لناموس الله، وأنه ليس للأعمال شأن في الفداء لأنّ الإنسان يصير شريكا في نعمة المسيح بالإيمان فقط.

ولكنّ الطاعة هنا ليست مجرد اذعان، ظاهري، بل هي خدمة المحبة، فإن ناموس الله يعبر عن صفات الله، وقد تجسّم في هذا الناموس مبدأ المحبة، ولذلك هو أساس حكم الله في السماء وعلى الأرض، فاذا كانت قلوبنا قد تجددت على صورة الله واستقرت المحبة الإلهية في النفس، أفلا يتمثل ناموسه في حياتنا؟ ومتى ساد مبدأ المحبة في القلب وتجدد الإنسان حسب صورة خالقه فقد تم الوعد الذي جاء في العهد الجديد القائل: « أجعل نواميسي في قلوبهم وأكتبها في أذهانهم»، عبرانيين ١٠: ١٦. وإذا كان الناموس مسطورا على القلب أفلا يكيّف الحياة؟ فالطاعة المبنية على خدمة المحبة والولاء، هي علامة التلمذة الحقيقية الفارقة. لذلك يقول الكتاب « فإن هذه هي محبة الله أن نحفظ وصاياه»، ١ يوحنا ٥: ٣ « من قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه، فهو كاذب وليس الحق فيه» ١ يوحنا ٢: ٤. فالإيمان اذن لا يحرر الإنسان من واجب الطاعة، بل بالحرى هو الإيمان والإيمان وحده الذي يجعله شريكا في النعمة التي تقدره على تقديم الطاعة الكاملة.

على أنّ الخلاص لا يصير حقاً لنا بالطاعة، إنما الخلاص هبة مجانية نتقبله من الله بالإيمان، وما الطاعة إلا ثمرة الإيمان لذلك يقول الرسول: «تعلمون أن ذلك أظهر لكي يرفع خطايانا وليس فيه خطية، كل من يثبت فيه لا يخطيء، كل من يخطيء لم يبصره ولا عرفه»، ١ يوحنا ٣: ٥٥. فالطاعة إذن هي العلامة الفارقة، لأن الذي يثبت في المسيح وتملك المحبة في قلبه تكون أمياله وأعماله مطابقة لإرادة الله المعلنه في وصايا شريعته المقدسة، «أيها الاولاد، لا يضلكم أحد، من يفعل البر فهو بار كما أن ذاك بار»، ١ يوحنا ٣: ٧، وأما مقياس البر فهو ناموس الله الذي أنزله على جبل سيناء.

إذاً، فالإيمان المزعوم الذي يحرر الناس من التزامات الطاعة لناموس الله، ليس هو في الحقيقة إيماناً، بل تصلفاً وتطاولاً، وصحيح أنّ الرسول بولس يقول: إننا «بالنعمة مخلصون بالإيمان» افسس ٢: ٨، ولكن يجب ألا يغرب عن بالنا أنّ «الإيمان أيضاً ان لم يكن له أعمال ميّت في ذاته» يعقوب ٢: ١٧، ولقد أكد يسوع نفسه وجوب الطاعة للناموس إذ قال عن نفسه قبل مجيئه إلى هذه الأرض، «أن افعل مشيئتكم يا الهي سررت، وشريعتك في وسط أحشائي»، مزمو ٤٠: ٨. وقال أيضاً قبل صعوده «أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبتت في محبته» يوحنا ١٠: ١، وكذلك يقول الروح القدس على لسان يوحنا « بهذا نعرف أننا قد عرفناه، ان حفظنا وصاياه. من قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه فهو كاذب وليس الحق فيه ... من قال انه ثابت فيه ينبغي انه كما سلك ذاك، هكذا يسلك هو أيضاً»، ١ يوحنا ٢: ٣-٦، وقوله على لسان الرسول بطرس «فان المسيح أيضاً تألم لاجلنا، تاركاً لنا مثالا لكي نتبعوا خطواته»، ١ بطرس ٢: ٢١.

يتبين من هذا أنّ الطاعة الكاملة للناموس الإلهي، لا تزال هي شرط التمتع بالحياة الأبدية، كما كانت في عهد أبويننا الأولين، وهما في جنة عدن، لأنه لو كان شرط آخر للحصول على الحياة الأبدية، دون الطاعة الكاملة لله، لظلّ باب الخطية مفتوحاً على الدوام تتدفق منه سيولُ البؤس والشقاء، مما يقضي على سعادة الكون بأسره.

لقد كان في مقدور آدم، قبل السقوط، أن يصوغ سجايا بارّة بالطاعة لناموس الله، ولكنه عصى فسقط، وبخطيته سقطنا نحن أيضاً، ولا نستطيع أن نغير طبيعتنا فنصير أبرار، ولا يمكننا، ونحن نجسون، أن نؤدي الطاعة الكاملة لناموس مقدس، وليس لنا برّ ذاتي به نوفي مطالب العدالة الحقّة، ولكن المسيح قد فتح لنا باب النجاة إذ قد عاش على الأرض فتعرّض لكل ما نتعوض له نحن من تجارب الحياة وشدائدها، وانتصر، فقد عاش بلا خطية ثم مات لأجلنا، وهو مستعد لأن يحمل عنا خطايانا ويهبنا برّه، فإذا أنت سلّمته نفسك وقبلته فادياً ومخلصاً لك حُسبتَ باراً كأنك لم تخطيء قط، إذ أنّ صفاته قد حُسبتَ لك فصارت صفاتك.

وفضلاً عن ذلك، فإن المسيح يغيّر القلب ويحلّ فيه بالإيمان، فعليك أن تحتفظ بصلتك بالمسيح، بالإيمان، وتعمل على إخضاع إرادتك له إخضاعاً مستمراً، وما دمت تفعل ذلك، فإنه يعمل فيك أن تريد وأن تعمل من أجل المسرة، حتى تستطيع أن تقول، «فما أحياء الآن في الجسد، فإنما أحياء في الإيمان، إيمان ابن الله، الذي احبني، وأسلم نفسه لأجلي»، غلاطية ٢: ٢٠، ولذلك قال المسيح لتلاميذه، «لأن لستم انتم المتكلمين بل روح أبيكم الذي يتكلم

فيكم»، متى ١٠: ٢٠، واذ يكون المسيح عاملا فيك، نستطيع أن تظهر روحه، وأن تعمل أعماله، أعمال البرّ الفضلى التي هي الطاعة المثلى.

وإذن، فليس لنا في أنفسنا ما يحملنا على التفاخر، أو يسوّغ لنا التعاطم لأنّ أساس رجائنا، إنّما هو برّ المسيح المحسوب لنا وما يعملُه الروح فينا وبنا.

وإذ نتكلم عن الإيمان يجب أن يكون في فكرنا التمييز بين الإيمان الحقيقي ومجرّد التصديق لأنّ الشيطان نفسه لا يستطيع أن ينكر وجود الله، ولا أن يتجاهل قدرته أو يكذب صدق أقواله، كما أثبت ذلك الرسول يعقوب في قوله: «الشياطين يؤمنون ويقشعرون» يعقوب ٢: ١٩. إلا أنّ إيمان الشياطين ليس إيمانا للخلاص إذ ليس فيه خضوع لإرادة الله، وأما الإيمان الذي يحدو الإنسان على تسليم قلبه لله والاتكال عليه فهو الإيمان الصحيح، «الإيمان العامل بالمحبة» الذي يجدد في صاحبه صورة الله حتى أنّ القلب، الذي في حالة عدم تجدده ليس خاضعا لناموس الله، لأنه أيضا لا يستطيع، أصبح يبتهج بالشرعية قائلا مع المرنم «كم أحببت شريعتك، اليوم كله هي لهجي» مزمو ١١٩: ٩٧، وهكذا «يتم حكم الناموس فينا نحن السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح» رومية ٨: ١ و٤.

وبين المؤمنين قوم يعرفون محبة المسيح الصفوح ويرغبون في أن يكونوا أولادا لله، غير أنهم يشعرون بأن حياتهم مليئة بالنقائص والعيوب مما يحملهم على الارتياح من أنهم تجددوا بالروح القدس، فلأمثال هؤلاء أقول، لماذا التخاذل؟ لأننا كثيرا ما نلتزم بعد قبولنا المسيح أن نبادر إليه ونرتمي عند قدميه معترفين بدموع سخية بخطايانا وتقصيراتنا، ولكن علينا أن لا نياس، لأنّ

الله، وإن كان العدو قد غلبنا، لا يرفضنا ولا يهملنا ولا يتركنا، فالمسيح عن يمين الآب يشفع فينا، وقد قال يوحنا الحبيب في هذا « يا أولادي اكتب إليكم هذا لكي لا تخطئوا، وإن اخطأ احد فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار »
 ١ يوحنا ٢: ١. لنذكر أيضا كلمات يسوع، « الآب نفسه يحبكم » يوحنا ١٦: ٢٧، وهو أن يردك اليه ويطبع على حياتك صورته وقداسته، فإذا كنت تسلم نفسك له لا بد من أن يكمل العمل الصالح الذي ابتدأه فيك، فلنصل بأكثر حاجة ولنؤمن إيماناً راسخاً، وكلما شعرنا بضعفنا فلنزد ثقةً بقدرة الفادي ولنرتج الله لأننا بعد نحمده خلاص وجهنا والهنا. مزمور ٥٠: ٤٣.

إننا، كلما دنونا من يسوع، ازددنا شعوراً بما فينا من نقائص وعيوب، إذ نرى أنفسنا على حقيقتها في ضوء الكمال الإلهي، وما الشعور بالنقص إلا الدليل على أن القلب قد بدأ يزايله الغرور، وأن الضمير قد بدا يستيقظ من سباته ويبعث من موته، بفعل الروح القدس.

ولن نتأصل في قلوبنا محبة يسوع، ما لم نتحقق من إثمتنا، ونذكر خطانا، ولن نعجب بكمال الله وجماله، ما لم تكن قلوبنا متحدة بنعمته. فإن كنا لم نر بعد نقصنا الروحي، ولم ندرك ضعفنا الأدبي، فما ذلك إلا الدليل البين على أننا لم نعرف المسيح بعد، ولم نجتل محاسنه ومزاياه.

فكلما قلّ تقديرنا لأنفسنا، ازداد تقديرنا لطهارة المخلص وجماله اللذين لا حد لهما، وإننا إذ ندرك خطانا وإثمتنا، نلجأ إلى ذاك الذي يستطيع أن يعفو ويصفح، وإذ نشعر بقصورنا وعجزنا، فإنه لا يني عن إعلان ذاته بقوة، وكلما

شعرنا بالحاجة إليه وإلى كلمته، تجلّت لنا بأكثر وضوح، صفاته الجليلة،
وانطبعت في قلوبنا صورته الجميلة.

الفصل الثامن

النمو

يُسَمَّى الكتاب المقدس تغيير القلب - التغيير الذي به نصير أولاد الله - ولادةً، ويُشَبَّه أيضا بروض الزرع الجيد الذي بذره الفلاح في حقله، ويحضر الذين تجددوا على أن ينموا « كأطفال مولودين الآن » إلى أن يبلغوا « قياس قامة ملء المسيح »، ١بطرس ٢: ٢؛ افسس ٤: ١٣، وأن يثبتوا ويثمروا مثل الزرع لأنهم « أشجار البرّ غرس الرب للتمجيد »، إشعياء ٦١: ٣، فمن هذه الأمثلة المستمدة من الحياة الطبيعية نستطيع أن نقف على بعض أسرار الحياة الروحية.

وليس في إمكان الإنسان مهما أحرز من الحكمة والمهارة أن ينشئ حياة في نبات أو حيوان، لأن مصدر الحياة هو الله، وبه وحده يحيا كل حي، وكذلك أيضا في العالم الروحي، لا تتولد حياة روحية في قلب الإنسان إلا بفعل الله، وإن لم يولد الإنسان « من فوق » لا يستطيع أن يكون شريكا في الحياة التي جاء يسوع ليهبها للعالم.

وشأن الحياة هو شأن النمو بالذات، فالذي يجعل البرعم زهراً ويحول الزهر أثمارا هو الله الذي بقوته يجعل البذر « أولا نباتاً ثم سنبلًا ثم قمحا ملآن في السنبل »، مرقس ٤: ٢٨، وقال هوشع النبي عن شعب الله إنهم يزهررون كالسوسن و « يحيون حنطة ويزهرون كجفنة »، هوشع ١: ٥ و٧، ويأمرنا

يسوع أن نتأمل « الزنايق كيف تنمو » لوقا ١٢: ٢٧، فإن النباتات والزهور لا تنمو باهتمامها، ولا تزهر بغنائها وكدها، ولكنها تنمو إذ تتقبل من الله ما أعده لنموها، والولد لا يستطيع بقوته واجتهاده أن يزيد على قامته ذراعا، وكذلك في الحياة الروحية، لا تستطيع أنت أن تنمو باجتهادك ومجهودك، بل كما أن الولد والنبات ينميان كلاهما بأخذهما من المحيط ما يخدم حياتهما - كالهواء النقي وضوء الشمس والطعام - هكذا تنمو أنت أيضا بقبولك المسيح شمس البرّ، والنور الأبدي، فإنه « لإسرائيل كالندى » « ينزل مثل المطر على الجراز ومثل الغيوث الذارفة على الأرض »، هوشع ١٤: ٥؛ مزمور ٧٢: ٦، وهو أيضا « الماء الحي » و « خبز الله » « النازل من السماء الواهب حياة للعالم »، يوحنا ٦: ٣٣.

فالله إذ أعطى ابنه يسوع المسيح قد أحاط العالم بجو من النعمة كما يحيط الهواء الكرة الأرضية، وكل من يختار أن يستنشق هواء هذا الجو المنعش يحيا وينمو إلى قياس قامته ملء المسيح.

وكما تتجه الزهور نحو الشمس لتستمدّ من أشعتها ما يجمعها ويكمل تنسيقها هكذا يجب أن نتجه صوبَ شمسِ برّ المسيح الذي يضيء علينا بنوره من السماء فننمو في حياتنا الروحية حتى نصير مشابهيّن لصورته.

وهذا عين ما علّم به يسوع في قوله: « اثبتوا في وأنا فيكم، كما أنّ الغصن لا يقدر أن يأتي بثمر من ذاته، إن لم يثبت في الكرمة كذلك أنتم أيضا إن لم تثبتوا في ... الذي يثبت في ... هذا يأتي بثمر كثير لأنكم بدوني لا تقدرون ان تفعلوا شيئا » يوحنا ١٥: ٥، فحاجة الغصن إلى اصل الشجرة لكي ينمو ويثمر

هي حاجتك إلى المسيح لكي تحيا حياة البرّ، إذ لا حياة لك إذا انفصلت عنه، ولا قوة لك على مقاومة التجارب والنموّ في النعمة والقداسة، ولكن إذا ثبتّ فيه تكون مثل شجرة مغروسة على مجاري المياه، أوراقها لا تذبل ولا تكون عقيمة، بل تزهر وتثمر دائما.

غير أنّ الكثيرين يتصورون أنّ عليهم وحدهم أن يقوموا بقسط وافر من عمل النمو فقد قبلوا من المسيح غفران الخطية مجانا، ولذلك يحسبون أن حاجتهم إنما هي أن يعيشوا باستقامة وكمال، وأما كل محاولة كهذه فمصيورها إلى الإخفاق والفشل، كما قال المسيح «بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئا»، فقمونا في النعمة يتوقف كله على اتحادنا بيسوع، ولا يتسنى لنا أن ننمو في النعمة إلا بمحادثتنا يسوع كل ساعة والثبوت فيه كل دقيقة، فالمسيحية هي المسيح أولا وأخرا ودائما وأبدا، إذ يجب أن يكون معنا في اول الطريق وفي نهايتها، بل في كل خطوة منها، وإلا فنصيبنا الفشل، كما قال داود في ذلك «جعلت الرب أمامي في كل حين، لانه عن يميني فلا أتزعزع»، مزمو ١٦: ٨.

أسأل، «كيف أثبت في المسيح؟» إنك تثبت فيه بالكيفية نفسها التي بها قبلته أولا، وهاك ما كتبه الرسول بولس في هذا المعنى «كما قبلتم المسيح يسوع الرب اسلكوا فيه»، كولوسي ٢: ٦، «أما البار فبالإيمان يحيى» عبرانيين ١٠: ٣٨، فقد سلمت نفسك تسليما تاما لخدمة الله وطاعته، وقبلت يسوع مخلصا لك، ولم يكن في مقدورك أن تكفر عن خطاياك ولا أن تغير قلبك، ولكنك حين سلمته، تعالى، نفسك آمنت بأنه أنعم عليك بهذا كله في المسيح، فبالإيمان إذن صرت للمسيح، وبالإيمان يتسنى لك أن تثبت فيه، إنه لأخذ

وعطاء، أنت تعطيه الكل: قلبك وأرادتك وخدمتك، وتأخذ منه الكل: ملء البركات وحلول المسيح في قلبك ليكون لك قوة وبراً وعوناً أبدياً، فيهبك القدرة على الطاعة الكاملة.

فبكر إلى الله في الصباح، وسلم له نفسك جديداً، ولتكن صلاتك اليه: «يا رب إني لك بجمليتي، واضع كل تدبيراتي لهذا النهار في يديك لتستخدمني كيفما تشاء، كن معي، ولتكن أعمالي اليوم أعمالك». إن هذا لفرض عليك كل يوم أن تخصص نفسك لله كل صباح لتكون له طول النهار، وسلمه كل تدبيراتك لتنفيذها أو لإبطالها كما تشاء عنايته، وهكذا تكون مسلماً حياتك لله ليصوغها ويصبها في قالب حياة يسوع فتصير مثله.

الحياة في المسيح هي حياة الراحة، وقد تكون خالية من فرط الشعور بالفرح، ولكن يجب أن يملأها السلام الدائم والثقة الثابتة إذ أن رجاءك ليس في ذاتك بل في المسيح الذي يبدل ضعفك بالقوة ويهبك عوض جهلك وعجزك الحكمة والبأس، لا تنتظر إلى نفسك ولا تركّز تفكيرك في ذاتك بل تطلّع إلى المسيح، وتأمل محبته وتفكر في اتضاعه فتتغير تغيراً مطّرداً حتى تصير مشابهاً لصورته.

قال المسيح «اثبتوا في»، ومعنى الثبوت الراحة والطمأنينة والاستقرار، ثم دعانا قائلًا: «تعالوا إلي ... أنا أريحكم» متى ١١: ٢٨ و٢٩، ولقد بيّن لنا بواسطة إشعياء أنه «بالرجوع والسكون تخلصون، بالهدوء والطمأنينة تكون قوتكم» إشعياء ٣٠: ١٥، على أن هذه الراحة لا تعني التواني والكسل، لأنّ المخلص في دعوته قرن الوعد بالدعوة إلى العمل إذ قال «احملوا نيري عليكم

... فتجدوا راحة لنفوسكم» متى ١١: ٢٩، فبقدر ما يستريح الإنسان في المسيح يكون جدّه ونشاطه في العمل لأجله.

لكن إن كان اهتمامنا بأنفسنا فلا بد من أن نتحول عن مصدر حياتنا وقوتنا يسوع، فيبذل الشيطان إذ ذاك جهدا جهيدا مستمرا ليصرف نظرنا عن المخلص فيمنع اتحادنا به ومحادثتنا إياه، ويشغلنا بلذات العالم وهموم الحياة وارتباكاتها وبغلطات الغير أو بغلطاتنا نحن، وهكذا يسعى إلى أن يلهينا عن المسيح، فلنتنبه لئلا يخدعنا بمكائده، لأنه كثيرا ما ينجح في تحويل ذوي الضمائر الحية والرغبة الصادقة إلى التأمل في غلطاتهم وضعفاتهم أملاً منه في فصلهم عن يسوع وحرارز الغلبة النهائية، فلا تهتم لنفسك ولا تستسلم للقلق والخوف من جهة خلاصك، لأن هذا كله من شأنه أن يحولك عن مصدر قوتك، بل سلم نفسك إلى الله واتكل عليه، وليكن حديثك عن يسوع وتفكيرك فيه إلى أن يغمرك وتنسى نفسك، اطرح عنك كل شك وابتعد عنك كل خوف وقل مع الرسول «أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ، فما أحياه الآن في الجسد فإتما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله الذي احبني واسلم نفسه لأجلي» غلاطية ٢: ٢٠، توكل على الله فإنه قادر على أن يحفظك ووديعتك، وإن فوّضت أمرك إليه يعظم انتصارك بالذي أحبك.

لقد ربط المسيح البشرية بنفسه، باتخاذ الصورة الإنسانية، برباط حبّي لا تنفصم عراه أبداً، اللهم إلا باختيار الإنسان نفسه، لذلك تجد الشيطان دؤوبا في إغرائنا بشتى المغريات لعله يحملنا على قطع هذه الرابطة باختيارنا والانفصال عن المسيح برغبتنا، فمن ثمّ يجب أن نسهر ونجاهد ونصلي لكيلا يستغويننا غاوٍ على أن نختار سيّداً آخر - فلنا دائما ملء الحرية أن نختار لأنفسنا ما

يحلون لنا - على أن المسيح ليحفظنا إن نحن ثبتنا النظر فيه، فما دمنا نلتفت إليه نحن آمنون، لا يستطيع أحد أن يخطفنا من يده، وبالنظر إليه «نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد، كما من الرب الروح» ٢كورنثوس ٣: ١٨.

أجل، بهذه الوسيلة استطاع التلاميذ الأولون أن يتشبهوا بمخلصهم العزيز فهم إذ سمعوا كلماته شعروا بحاجتهم إليه فطلبوه فوجدوه فتبعوه، فراقوه حين جلوسه إلى المائدة، ولازموه في المخدع وصحبوه إلى الحقول، وكانوا معه كالتلميذ مع المعلم يتلقن منه دروساً في قداسة الحق، وكعبد يتلقى أوامر سيده، ومع ذلك كانوا أناساً تحت الآلام مثلنا، يعقوب ٥: ١٧، يحاربون الخطيئة كما نحاربها نحن، ويحتاجون إلى نعمة ربهم لكي يحيوا حياة مقدسة.

فيوحنا الحبيب، ذلك التلميذ المحبوب، باتت عليه صورة المخلص أكمل بيان، غير أن سجاياه السامية لم تكن فطرية فيه، فقد كان مدعيًا العظمة، طموحاً إلى الكرامة، متهوراً شديد الامتناع إذا أصابه أذى، ولكنه إذ تجلّت له صفات ذلك الإنسان الإلهي، أدرك عجزه، فقاده الإدراك إلى الإبتضاع، وإن ما رآه يوحنا في حياة ابن الله اليومية من القوة والصبر، من القدرة والرقّة، من الجلالة والوداعة، ملأ نفسه بالإعجاب والمحبة، فارتكزت عواطفه في المسيح، وتقوّت يوماً فيوماً إلى أن نسي نفسه واستغرق في حب سيده العظيم، فسلم طبيعته الحادة اليه ليصبّها في قلبه، وليخلق فيه بالروح القدس قلباً جديداً، وليغيّر بمحبته صفاته تغييراً كاملاً شاملاً. إن هذه النتائج تلازم أكيدا كل اتحاد بالمسيح، فمتى حلّ المسيح في القلب ومحبته تخضع النفس، فتسمو الأفكار إلى السماء وتعلو الرغائب إلى الله.

صعد المسيح إلى السماء ولكنّ تابعيه ما فتنوا يشعرون بحضوره معهم حضورا شخصيا يشملهم بمحبته ويرشدهم بنوره فبعد أن ذهب عنهم مخلصهم الذي سار معهم وتحدث إليهم وصلى لأجلهم وأحيا فيهم الرجاء وعزّى قلوبهم، نعم، بعد أن ذهب عنهم وعلى شفّتيه رسالة السلام، رجع إليهم من سحابة الملائكة صدى وعده، «ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» متى ٢٨: ٢٠. ذهب يسوع إلى السماء وهو بالزّيّ الإنساني، وتيقّن التلاميذ أنه امام عرش الله صديقهم ومخلصهم، فلم يطرأ على عواطفه تغيير بل لم يزل واحدا من البشرية المتألّمة يقدّم امام الآب استحقاق دمه وجروح يديه ورجليه مظهرا أنه قد وقّى حقّ فدائهم بالتمام، وعرفوا أنه إنما عاد إلى السماء ليعدّ لهم منازل، فيأتي أيضا ويأخذهم ليكونوا معه إلى الأبد.

حين اجتمعوا معا بعد صعوده كان شوقهم عظيما إلى الصلاة باسمه، وكانوا يجثّون بكل خشوع ويرددون ذلك الوعد القائل «ان كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم، إلى الآن لم تطلبوا شيئا باسمي، اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملا»، يوحنا ١٦: ٢٣ و ٢٤، وما انفكوا يرفعون يد الإيمان مرددين هذه الحجة القوية بقولهم إنّ المسيح «الذي مات بل بالحري قام أيضا، الذي هو أيضا عن يمين الله، الذي يشفع فينا» رومية ٨: ٣٤، حتى حلّ يوم الخمسين، فوافاهم المعزى الذي وعدهم به المخلص في قوله «انه خير لكم أن انطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى ولكن إن ذهبت أرسله إليكم» يوحنا ١٦: ٧، ومنذ ذلك الحين أصبح المسيح يحلّ في قلوب المؤمنين حلولا دائما، بل اصبح أقرب منهم وأوثق صلة بهم مما كان في أيام جسده وصارت محبته ونعمته وقوته أكثر تجلياً في حياة أولاده، حتى أن كل من رآهم تعجّب وتأكد أنهم كانوا من أتباع يسوع، أعمال ٤: ١٣.

ما كانه المسيح لتلاميذه الأولين، هذا يريد أن يكونه للمؤمنين به في هذه الايام كما يتضح ذلك من صلاته التي صلاها قائلاً: « ولست أسأل من أجل هؤلاء فقط بل من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم» يوحنا ١٧: ٢٠.

وقد صلى لأجلنا وابتهل إلى الله لكي نكون واحداً، كما أنه هو والآب واحد، فقد قال المخلص عن نفسه، « لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً» يوحنا ١٩: ٥، « الآب الحال في هو يعمل الأعمال» يوحنا ١٠: ١٤، فإذا كان المسيح حالاً في قلوبنا لا بدّ من أن يعمل فينا لكي نريد وأن نعمل لأجل المسرة، فيلبي ٢: ١٣، فنعمل كما عمل هو ويتجلّى فينا الروح الذي تجلّى فيه، وهكذا إذ نحبه ونثبت فيه « ننمو في كل شيء إلى ذلك الذي هو الرأس المسيح» افسس ٤: ١٥.

قابلاً حمل صليبي	اتبع الفادي الامين
راضياً انكار نفسي	وارتدا العار المهين
فهو لي أسنى نصيب	وهو مولاي الحبيب
إن جفاتي الناس طراً	فهو لي أسنى نصيب
فلذا أحيا هنا في الـ	أرض كالضيف الغريب
راجياً بعد ارتحالي	ان أرى وجه الحبيب
فسلام وخلود	عند ذيك الودود
وسرور أبدي	فسلام وخلود

العمل

إنّ الله لمصدر الحياة والنور والسعادة للعالمين، تنبثق منه البركات لجميع مخلوقاته كما تنبت من الشمس أشعتها المنعشة وكما تنفجر من العين مياهها الحية، وعندما تملأ حياة الله قلب الإنسان تفيض منه حاملّة المحبة والبركة للآخرين أيضا.

اغْتَبَطَ المسيح أن يفدي الإنسان الهالك وتهلل أن يرفعه إلى الله، ولم يحسب حياته ثمينة عنده لإيجاز هذا العمل، بل بذلها « واحتمل الصليب مستهينا بالخزي » وهكذا الملائكة أيضا، فإنهم يسعون دائما في إسعاد الآخرين، وفي عملهم هذا يجدون لذة وسرورا، فالخدمة التي يحسبها كل محب لذاته بالعمل المهين له، خدمة التوسع الذين هم دونه أخلاقا ومقاما، إنما هي الخدمة التي يقوم بها ملائكة الله الأطهار، وروح المحبة الذي يقومون به بفرح وابتهاج.

متى حلت محبة المسيح في القلب تكون فيه كالمسك الذي لا تخفى رائحة بائعه بل تفوح منه فتتعش كل من يقاربه، ومتى ساد روح المسيح في القلب يكون فيه كالعين في الفقر تفيض مياهها لتتعش المعوي وتولد فيه الشوق إلى الاستقاء من ينبوع الحياة الأبدية.

من مظاهر المحبة ليسوع أن يسعى المحب في النسج على منواله فيعمل عمله في إسعاد الناس، ومن خصائصها أن تبدي العطف والشفقة والمواساة لكل من تشمله العناية الإلهية الأبوية.

لم يعيش المخلص على الأرض عيشة الدعة والراحة ولم ينهمك في خدمة نفسه، بل كانت حياته جهادا دائما ونضالا دائما لخالص المنكوبين الهالكين ولم يعرف من المذود إلى جلجثة إلا التضحية وإنكار النفس، فلم يطلب يوما العفو من واجب مضن، ولم يحاول التخلص من وعثاء سفر، ولم يهرب من عمل شاق، إذ أنه «لم يأت ليخدم بل لِيُخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين» متى ٢٠: ٢٨، فالخدمة كانت غاية حياته العظمى والوحيدة، وما عداها كان ثانويا ومما يستخدم في سبيل بلوغ الغاية المنشودة، ولم يكن من شيء ليشبع نفسه ويروي ظمأه كعمل مشيئة الآب، حتى أن حياته خلت من الأثرة ومحبة الذات خلوا تماما مطلقا.

كل من يقبل نعمة المسيح فمثله يكون على استعداد للقيام بأية تضحية حتى يتسنى لجميع الذين مات عنهم يسوع أن يشتركوا في قبول الهبة السماوية، وأنه يسعى أيضا إلى جعل العالم، بفضل حياته فيه، أحسن مما كان عليه، فمثل هذه الخدمة هي من الاثمار الطيبة التي يأتي بها المتجدد الحقيقي الذي إذ أقبل إلى المسيح تولدت في نفسه الرغبة في المناداة بالصديق الحميم الذي وجدته وفي اعلان الحق الذي خلصه وقده والذي لا يمكن إخفاؤه في قلبه، لأن الذي قد لبي برّ المسيح وامتأ قلبه من فرح الروح لا يستطيع السكوت عما اختبره بعد أن ذاق وعرف «ما أطيب الرب»، كما فعل فيلبس الذي إذ وجد المسيح ذهب تورا وفتش عن نشائيل ودعاه قائلا: « تعال وانظر» وكذلك يحاول كل

متجدد أن يعرض على الناس فضائل المسيح وأن يعرفهم بغنى العالم غير المنظور وهو في ذلك يشترك اشتياقا عظيما إلى أن يرى الجميع فيه « حمل الله الذي يرفع خطية العالم ».

لا شك في أن كل مسعى نبذله لإسعاد الآخرين يعود علينا بالبركات المضاعفة حسب قصد الله من إشراك الإنسان معه في إنجاز عمل الفداء، لأنه تعالى قد وهب للناس أن يصيروا شركاء الطبيعة الإلهية وأن يعملوا، هم في دورهم، على إشراك بني جنسهم في هذه البركة. إن هذا لأسمى شرف وأعظم فرح يستطيع الله القدير أن يوجد بهما على المخلوقات، فالذين يشاركون الله في أعمال المحبة هم إليه أقرب المقربين.

كان من الممكن أن يسند الله الكرازة بالإنجيل إلى الملائكة السماويين وأن يكمل إليهم أمر توزيع بركات المحبة، أو أن يستخدم وسيلة أخرى من الوسائل المتوافرة لديه لإيجاز مقاصده، ولكنه تعالى، اختارهم أن يكونوا هم العاملين معه ومع المسيح والملائكة ليكون لهم أيضا نصيب وافر من البركات والأفراح والرفعة التي تنجم عن هذه الخدمة الجليلة.

ومن بركات الشركة في آلام المسيح أنها تولد في القلب الشعور بروح المسيح، فالتضحية في الخدمة تقوي الإنسان على الجود والإحسان وتوثق حلفه مع فادي الأنام الذي افتقر وهو الغني لكي يستغنى البشر بفقره، وما لم يتم هكذا قصد الله في خلق الإنسان لا تكون الحياة بركة لصاحبها.

إن خصصت نفسك لعمل كل ما يريده المسيح من تلاميذه، وسعيت إلى ربح النفوس الهالكة، لا بد من أن تشعر بحاجة إلى اختبار أنجع ومعرفة أوسع،

لأنك تجوع وتعطش إلى البرّ وتتوسل إلى الله أن يقوي إيمانك ويسقيك جرعات أغزر من ينبوع الخلاص، وأما المقاومة والصعاب التي تلاقىها فإنها تقودك إلى درس كلمة الله وإلى المداومة على الصلاة فتنمو في نعمة المسيح ومعرفته وتسعد باختبارات ثمينة غنية.

إنّ التضحية في العمل لأجل الغير، التضحية الخالية من الاثر، لتكسب الأخلاق عمقا وثباتا وجمالا مسيحيا، وتملأ القائم بها سلاما وسعادة، وترفع الأماني وتطهرها ولا تترك مجالا للتراخي والاهمال، لأنه من شأن الفضائل المسيحية أن تنمي قوى ممارستها وتمنحه بصيرة ثاقبة وإيمانا وطيدا متزايدا وقدرة مقتدرة في الصلاة، فالروح القدس، إذ يعزف على أوتار النفس يُخرج منها نغما يتجاوب مع النعمة الإلهية، وأولئك الذين يقفون حياتهم على السعي إلى نفع الآخرين إنما هم في الواقع يعملون على خلاص أنفسهم.

على أنّ الطريقة المثلى للنمو في النعمة هي أن نشغل بإخلاص في العمل المفروض علينا، وأن نبذل قصارى جهدنا لمساعدة من هم في حاجة إلى معونتنا، فإنما تتزايد قوتنا، بالمران والعمل، لأن النشاط هو من مستلزمات الحياة وضروراتها، فأولئك الذين يسعون إلى المحافظة على الحياة المسيحية بقبولهم البركات التي تأتيهم عن طريق وسائط النعمة، دون أن يعملوا شيئا لأجل المسيح، مثلهم كمثّل من يحاول أن يأكل دون أن يشتغل أو يعمل. فهذه الحالة، تأثيرها الروحي كتأثيرها الطبيعي، لأن الإنسان الذي يرفض أن يستخدم أعضائه لا بد من أن يفقد القدرة على استعمالها، ولذلك فإن المسيحي الذي لا يستخدم القوى المعطاة له من الله لا يتوقف فقط عن النمو بل أيضا يفقد القوة التي كانت له.

وقد جعل الله كنيسة المسيح أداة لتخليص البشر، ووكل إليها مهمة تبليغ الإنجيل إلى كل أنحاء العالم، فهذه المسؤولية ملقاة على عاتق المسيحيين أجمعين، ويتعين على كل إنسان أن يعمل على تحقيق هذه المهمة بحسب ما يتيسر له من الفرص والمواهب، لأن المحبة التي أعلنها لنا المسيح، تجعلنا مديونين لكل الذين لم يعرفوا المخلص بعد، إذ أن الله قد وهبنا نورا، لا لكي نستأثر به لأنفسنا، بل لنضيء به على الآخرين.

فلو أن اتباع المسيح كانوا متنبهين لواجبهم وحريصين على أداء مهمتهم، لكان الذين يقومون اليوم بنشر رسالة الإنجيل في البلاد الوثنية يعدّون بالألوف بدلا من الآحاد القلائل الذين يعملون اليوم، ولكان أولئك الذين لا يستطيعون أن يندمجوا في سلك العمل التبشيري بأنفسهم يخدمون قضية المسيح بأموالهم وعطفهم، وصلواتهم، ولوجدنا في البلدان المسيحية، غيرة أكثر واجتهادا أوفر لربح النفوس.

ولسنا في حاجة إلى أن نذهب إلى تلك الأقطار الوثنية البعيدة لنخدم المسيح، أو نغادر محيطنا الضيق الذي نعيش فيه، إن كان هو المكان الذي يجب علينا أن نعمل فيه، فنستطيع أن نخدم ونحن في المحيط العائلي وفي الكنيسة ونستطيع أن نخدم أيضا بين من نخالطهم ونزاملهم ونعمل معهم.

قضى مخلصنا الشطر الأكبر من حياته، وهو يعمل في حانوت نجار بمدينة الناصرة، وقد كانت الملائكة تخدمه، وهو يسير جنبا إلى جنب مع الفلاحين والعمال الذين لم يلقوا عليه بالاً ولم يعيروه التفاتاً، وكان يؤدي رسالته بكل صبر وأمانة في حرفته المتواضعة، كما كان يؤديها وهو يشفي مريضا، أو

وهو يمشي على بحر الجليل الهائج المائج، وهكذا يمكن كل إنسان أن يكون في خدمة يسوع، وهو يمارس أوضاع الحرف وأحقر الأعمال.

ولذلك يقول الرسول: « ما دعي كل واحد فيه ايها الاخوة، فليلبث في ذلك مع الله » ١كورنثوس ٧: ٢٤، فالتاجر يستطيع أن يدير عمله بكيفية تمجد سيده، إذا راعى الأمانة في شغله وجعل ديانته تتخلل كل معاملاته، واطهر روح المسيح في كل تصرفاته، والصانع يمكنه أن يكون مجداً وأميناً، ممثلاً سيده الذي كان يكدح، مؤدياً رسالته في أبسط الأعمال وأصغرها، وهكذا يجب على كل من يُسمي اسم المسيح، أن يؤدي عمله، على الوجه الذي يقود فيه الآخرين إلى تمجيد خالقهم وفاديتهم.

غير أن الكثيرين يعتذرون عن تقديم خدماتهم للمسيح، بحجة أنهم ليسوا كغيرهم ممن خصهم الله بمزايا عظيمة، ومواهب ممتازة، حتى لقد ساد عند بعضهم الاعتقاد بأن التكريس للخدمة يستلزم كفاءات نادرة ومؤهلات خاصة لا تتوافر إلا في فئة قليلة من الناس الذين خصهم الله دون سواهم بالمساهمة في الخدمة والجزاء، ولكن هذه الفكرة لا تتفق والمثل الذي ضرب به المسيح، إذ أوضح أن رب البيت دعا عبيده، وأسند إلى كل واحد منهم عمله الخاص. مرقس ١٣: ٣٤.

فإن كان لنا روح المحبة، يمكن أن نؤدي أحقر واجبات الحياة، « من القلب كما للرب »، كولوسي ٣: ٢٣، وإذا كانت محبة الله في قلوبنا، فإنها تتجلى في حياتنا، فتنبعث منا رائحة المسيح الزكية، ويكون تأثيرنا في الآخرين عاملاً على رفعتهم وإسعادهم.

فما عليك أن تنتظر حتى تنتهي لك فرص عظيمة، وتحصل على مواهب خارقة العادة لكي تستطيع أن تخدم الله، ويجب ألا تكون مشغولاً بما يفكر به العالم عنك، لأنه إذا كانت حياتك تشهد بطهارة إيمانك، واخلاص بواعثك، وشدة رغبتك في خدمة الناس ونفعهم، فإن جهودك لن تضيع هباء.

وهكذا يستطيع أفقر إنسان وأحقر مخلوق من تلاميذ يسوع أن يكون بركة للآخرين، وقد لا يشعر بأنه يأتي عملاً يذكر في هذه الحياة، ومع ذلك فإنه بتأثيره الخفي يحدث نتائج بعيدة المدى، إذ تتبارك، بسبب حياته وقُدوته جموعٌ غفيرة من الناس، وربما يظل غير شاعرٍ بمثل هذا التأثير في حياة الآخرين حتى ذلك اليوم الذي فيه يكافأ من الله فأمثال هذا لا يشغلون أنفسهم بمدى النجاح الذي يمكن أن يصيبوه، وإنما هم يسيرون في هذه الحياة قدماً، مؤدين عملهم في هدوء وأمانة، بحسب الدعوة التي دُعوا إليها، فهؤلاء لن يضيعوا حياتهم سدى، بل هم سيظلون في نموٍّ مطرد حتى يصبحوا مشابهيين لصورة المسيح ومثاله، وإذا هم عاملون مع الله في هذه الحياة، فهم بذلك إنما يهيئون أنفسهم لذلك العمل الأسمى، والفرح الخالص المعدّين لهم في الحياة الأخرى.

التعرف بالله

كثيرة هي الطرق التي بها يطلب الله أن يقودنا إلى معرفته، وإلى الوئام والشركة معه، فهذه الطبيعة التي تناجي مدركاتنا آناء الليل وأطراف النهار تؤثر في كل قلب مفتوح وتهمس في كل أذن صاغية مخبرة بمحبة صانعها ومعلنة مجده، فكأنّي بالحقول الخضراء والأشجار الباسقة، وبالسحب المارة والغيوث السارة، وبخير السيل وجمال السماء تحدثنا عن خالقها وتدعونا إلى التعرف به.

لقد مثل مخلصنا تعاليمه بما في الطبيعة، وقارن الحقائق الأبدية الثمينة التي نطق بها بالأشجار والأطيّار وبزهور الوهاد وكروم النجاد، وبالبحيرات الرائقة والسموات الرائعة، وألحقها بحوادث الحياة العادية وأحوالها اليومية لكيلا تغرب عن ذاكرة سامعيه بل يتعظّوا بها وسط انهماكات الحياة وأتاعبها الكثيرة.

يريد الله أن يستمتع أولاده بحسن صنّعه وبيتهجوا بالجمال البسيط المحتشم الذي زين به مسكننا الأرضي هذا، لأنّ الله يحب الجمال، ولاسيما جمال الأخلاق الذي يفضلّه على كل زينة خارجية مهما كانت، ويشتاق إلى أن يرانا مرتدين جمالا كجمال الزهور الهاديء العجيب.

لو تأملنا أعمالَ الله لتعلمنا منها دروساً ثمينة في الطاعة له والاعتكال عليه، من كل ما في الطبيعة من الأجرام الفلكية الكبيرة التي على مدى الأجيال تتبع مداراتها المتسعة المعينة لها، وكل ما في الكون من ذرات صغيرة أيضاً، تطيع ارادةَ خالقها وهو يعتني بها ويقوم بحاجتها، وإنّ الذي يحمل العوالم الكثيرة السابحة في الفضاء الفسيح، هو الذي يعتني أيضاً بالعصافير التي تغرد تمجيداً لخالقها بلا خوف أو وجل، وهو الذي يهيمن على العامل إذ يخرج لعمله اليومي كما يهيمن عليه في المخدع وفي أثناء رقادهِ وحين قيامهِ من النوم، وإنّه لا يفتأ يراقب الغنيّ إذ يولم في قصره الولائم الفاخرة كما يراقب الفقير إذ يجمع أولاده حول مائدته الحقيرة ليقاسمهم خبزهُ الحاف، فليس من دمعة تُذرف إلا ويراهها الله، وليس من ابتسامة إلا ويلاحظها بشوق واهتمام.

لو آمنا بهذه القدرة ووثقنا بهذه العناية لطرحنّا عنّا كل اهتمام زائد ولأبعدنا عنّا كل خيبة أمل، بل وتركنا جميع أمورنا صغيرة أكانت أم كبيرة، بين يدي القدير الذي لا تحيره كثرةُ العناية ولا يثقله تعبُ الرعاية، ولكنّا نمتّع نفوسنا بالراحة التي طالما اشتقنا إليها.

إذ تبتهج مداركك بجمال الأرض الخلاب اجتهد أن تتصور في مخيلتك الأرض الجديدة التي لا تشوبها خطية ولا تمتد إليها سلطة الموت ولا يظهر عليها ظلّ اللعنة، ثم إذا بلغت الحدّ في تصورك اعلم أنها ستكون أجمل وأمجّد بكثير من كل تصوراتك، لأنك لا تستطيع أن ترى الآن، مع تنوع عطايا الله، إلا لمحة خاطفة من مجده السني، كما هو مكتوب « ما لم ترَ عين ولم تسمع إذن ولم يخطر على بال إنسان ما أعده الله للذين يحبونه » ١كورنثوس ٢: ٩.

قد يفصحُ الشعراءُ في وصف جمال الطبيعة ويبالغ العلماءُ في الكلام عن غرائبها، وأما الذي يتمتع بها تمتعا مشبعا فهو المؤمن لأنه يرى فيها عمل يد أبيه ويميز محبة الله في النجاد والوهاد، وفي الأنهر والأبحر، فلا يعرف معناها ولا تتاجيه بما تكنه له من محبة وعناية.

يكلمنا الله أيضا في عنايته بنا ويناجينا بفعل روحه القدوس فينا، فإن حوادث الحياة والتقلبات التي نشاهدها من يوم إلى يوم، لو فطنا لها، لتعلمنا عن محبة بارينا، كما أشد المرئم في ذلك واصفا العناية الإلهية الدائمة قائلا، «امتألت الأرض من رحمة الرب» و «من كان حكيما يحفظ هذا ويتعقل مراحم الرب» مزمور ١٠٧: ٥٣: ٤٣.

يخاطبنا الله كذلك في كلمته المنزلة، وفيها يعلن صفاته بصيغة واضحة جلية إذ يعرفنا فيها بأعماله العظيمة في فداء الإنسان ويسرد أماننا تاريخ الآباء والأنبياء القديسين الذين كانوا تحت الآلام مثلنا وجاهدوا في أحوال كأحوالنا الصعبة، ولوا هاربين منهزمين مثلنا، ثم عادوا وتشجعوا وانتصروا بنعمة الله، ونحن إذ نراهم نتشجع أيضا في سعينا وراء البر، وإذ نقرأ عن اختباراتهم الثمينة وتمتعهم بالنور والمحبة والبركة، وعن العمل الذي قاموا به بنعمة الله وعن الروح الذي أظهروه، يضطرم في قلوبنا لهيب الاشتياق إلى أن نقتدي بهم وأن نكون مثلهم وأن نسير مع الله كما ساروا معه.

قال يسوع عن كتب العهد القديم أنها «هي التي تشهد لي» يوحنا ٣٩: ٥، وما قاله في العهد العتيق يصدق بالأحرى عن كتب العهد الجديد، لأن الكتاب المقدس كله لا يخبرنا إلا بالفادي الذي بدونه يكون الجنس البشري الهالك

عديم الأمل في الحياة الأبدية. إنّ المسيح هو موضوع إعلان الله، فمن الكلمة الاولى، «في البدء خلق الله السموات والأرض» إلى الأخيرة في الرؤيا «ها أنا آتي سريعا» لا تقرأ إلا عن أعماله ولا تسمع إلا صوته، فإذا أردت أن تتعرف بيسوع عليك بقراءة الكتب المقدسة.

املاً قلبك إذا بكلمة الله، لأنها الماء الحي الذي يروي لظى عطشك كما أنها الخبز الحي من السماء الذي يشبع فرط جوعك، ولقد صرح يسوع بذلك قائلاً: «إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم» يوحنا ٦: ٥٤، ثم أردف موضحاً معناه «الكلام الذي أكلكم به هو روح وحياة»، عدد ٦٣، فكما أن أجسادنا تتغذى وتبنى مما نتعاطاه من مأكّل ومشرب، كذلك أرواحنا أيضاً، فإنها تستمد قوة وشجاعة مما نتأمل فيه من الأمور الروحية الأبدية.

إنّ موضوع الفداء العجيب لمسألة «تشتهي الملائكة أن تطلع عليه» وهو سيكون موضوع دراسة المفكرين وموضوع ترنمهم وتهللهم مدى الدهور الأبدية. إذا، أفليس هو الآن جديراً بالتفكير العميق والاعتبار الجدّي الدقيق؟ بلى، لأن محبة المسيح ورحمته وتضحيتّه العظيمة من أجلنا لتستلزم أعماق التأمل وأوفر التفكير، بل يجب أن نطيل التبصر في صفات فادينا وشفيعنا ونديم النظر في رسالة ذاك الذي أتى ليخلص شعبه من خطاياهم فإن التأمل في هذه المواضيع السماوية يقوي محبتنا ويزيد إيماننا ويملأنا ثقة ومحبة، فتصعد صلواتنا إذ ذاك مقبولة عند الله لأنها تصدر عن ذهن مستنير وعاطفة مضطربة وثقة ثابتة بيسوع واختبار حيّ في قوته القادرة أن تخلص » إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله».

عندما نتأمل ملياً في كمالات المخلص يتولد فينا شوقٌ شديدٌ إلى تغيير كامل وتجديد شامل لنشترك في قداسه وطهارته، ذلك لأننا نزداد جوعاً وعطشاً إلى التشبه به، حتى إذا صار الفادي الموضوع الشاغل في أفكارنا نلهج به في كلامنا ونظهره للعالم في حياتنا وأعمالنا.

هذا وليست الكتب المقدسة للعلماء فقط، بل قد خصصت أيضاً لعامة الناس وجاءت فيها الحقائق العظمى بشأن الخلاص واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار حتى لا يخطيء أحد الطريق ولا يضلّ عن سبيل السبيل إلا من استقلّ برأيه وحاد عمداً عن مشيئة الله المعلنة الجلية.

يجب ألا نكتفي من شهادة إنسان ما بما يقول الكتاب المقدس، بل يجب أن نطالع كلمة الله بأنفسنا، لأن اتكالنا على دراسة غيرنا يقلّ نشاطنا ويُميت مواهبنا ويُضعف فينا القوى العقلية الثمينة التي لا تنمو إلا باستخدامها في مواضيع سامية يتطلب استيعابها مجهوداً عظيماً متواصلاً، وإذا حدث ذلك نفشل في ادراك معنى كلمة الله، إنّ العقل إذا استعمل في درس مواضيع الكتب المقدسة وفي مقابلة الآية بالآية ومقارنة الروحيات بالروحيات ليتسع اتساعاً عجيباً بينا.

ليس ما يقوّي الإدراك مثل درس كلمة الله، وليس ما يرفع الأفكار ويكسب العقل حذاقة مثل التأمل في الحقائق الكتابية العميقة المهيبة، فلو درس الإنسان الكلمة كما يجب لوجد فيها سعة عقل وسمو أخلاق وثبات وعزم قلما نراها في هذه الأيام.

على أنّ الفائدة من قراءة الكتاب المقدس قراءة عاجلة بدون ترويض ضئيلة جداً، فقد يقرأ المرء الكتاب كله، من التكوين إلى الرؤيا، ولا يرى شيئاً من جماله ولا يسبر شبرا من غوره، وأما إذا أطال التأمل في آية واحدة فقط إلى أن يدرك معناها ويفهم مغزاها في تدبير الخلاص فيستفيد أكثر بكثير مما لو تلا فصولاً عديدة دون هدف ولا منفعة، إذن خذ كتابك معك واقرأ فيه كلما وجدت لذلك فرصة سانحة، واستذكر آياته التي تقرأها لأنه من الممكن أن تتأمل في الآيات وأنت ماشٍ في الشارع فتثبتها في ذاكرتك.

إننا لن نصير ذوي حكمة إلا إذا أعرنا الكتاب المقدس التفافاً جدياً ودرسناه دراسة مصحوبة بالصلاة، لأنه، وإن كان في الكتاب فصول لا يخطيء أحد في فهمها إلا أنّ فيه أيضاً فصولاً ذات معنى عميق بعيد الغور، لا يسهل فهمها لأول وهلة، فيجب إذن مقارنة الآيات بالآيات مع توخّي الدقة في البحث والتعمق في التفكير والصلاة، وبذلك تعود علينا دراسة الكتاب المقدس بالخير العميم والنفع الجزيل، فكما يبحث المعدّن عن الأحجار الثمينة في جوف الأرض، هكذا يجب أن ننقب في كلمة الله عن كنز ثمين حتى نجد فيها حقائق ذات قيمة عظيمة مما قد أخفي عن عيون كثيرين من الذين يقرأون الكتاب قراءة عجي، فإن كلمة الوحي إذا وعيناها في قلوبنا وتدبرناها كانت بمثابة جداول تتدفق من ينبوع الحياة.

وحذار من الإقدام على دراسة الكتاب دون أن تستعين بالصلاة، فقبل أن تتصفح يجب أن تطلب الاستشارة من الروح القدس، ومتى طلبت فلا بد من أن تنال، فإن يسوع حين رأى نثنائيل مقبلاً إليه قال عنه « هوذا إسرائيلي حقاً لا غش فيه، فقال له نثنائيل من أين تعرفني، أجاب يسوع وقال له قبل أن دعاك

فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك» يوحنا ١: ٧ و٤٨، فيسوع الذي رأى نثنائيل وهو يصلي تحت التينة يراك أيضا وأنت تصلي في مخدعك إن كنت تتلمس منه النور لمعرفة الحق، بل إن ملائكة النور أنفسهم سيرافقونك ويأخذون بيدك إن كنت تطلب الهداية والإرشاد بروح الاتضاع والاتقياد.

إن عمل الروح القدس هو أن يعظم المخلص ويمجده إذ أن الروح هو الذي يقدم لنا المسيح وبره وخلاصه كما قال يسوع عنه «ذاك يمجدي لأنه يأخذ مما لي ويخبركم» يوحنا ١٦: ١٤، فإنما روح الحق دون سواه هو المعلم المؤثر الذي يستطيع أن يعلمنا الحق الإلهي.

فيا لعظم تقدير الله لجنسنا البشري، إذ أعطانا ابنه ليبيذل حياته لأجلنا ووهبنا الروح القدس ليكون معلمنا الذي يستطيع أن يعلمنا الحق الإلهي.

فيا لعظم تقدير الله لجنسنا البشري، إذ أعطانا ابنه ليبيذل حياته لأجلنا ووهبنا الروح القدس ليكون معلمنا ومرشدا لنا.

أقرب ما دمت إلى	مخلصي القدير
مع أن قلبي معه في	طريقه يسير
لما رأيت أولاً	جماله القدسي
سقيت كأس حبه	فانتعشت نفسي
يا طيب ساعات بها	أخلو مع الحبيب
يجري حديثي معه	سراً ولا رقيب

الصلاة

نعم يكلمنا الله في الطبيعة وفي الوحي، ويناجبنا بأعمال العناية وبتأثير الروح القدس فينا، ولكنّ هذا كله لا يكفي، بل، لكي تكون لنا حياة وقوّة روحيّتان، يلزم أن نفيض له بمكنونات صدورنا، ونحادثه عن جميع أمورنا، فقد تنجذب إليه عواطفنا، وقد نتأمل أعماله ومراحمه وبركاته دون أن نكون قد تحدثنا إليه بالمعنى الحقيقي، فلكي يكون بيننا وبين الله تحدّث يجب أن نخبره، في صلاتنا إليه، بما في حياتنا من واقعيّات.

إن الصلاة هي فتح القلب لله كما لو كنا نكلّم صديقاً حميماً، وليست هي ضرورة لنعلم الله بما نحن عليه، ولكنّها ضرورية لأنّها تمكننا نحن من قبول نعمته، إذ أنّها لا تنزل الله إلينا ولكنّها ترفعنا إليه تعالى.

علّم يسوع تلاميذه كيف يصلّون وأرشدهم إلى أن يعرضوا حاجاتهم اليومية لله، ويلقوا كل همهم عليه، وأكّد لهم أن طلبتهم تستجاب، وما قاله لهم قاله لنا نحن أيضاً.

ويسوع نفسه، وهو حالّ بين الناس، كان يصلّي كثيراً، فإذا اتحد بنا، وصارت حاجاتنا حاجاته وضعفاننا ضعفاته، تضرّع إلى الآب لينال منه قوّة جديدةً وليخرج متشدّداً لمواجهة واجبات اليوم وتجاربه، وهو في كل شيء مثالنّا، كما أنه أخُّ لنا في ضيقاننا، « مجرب في كل شيء مثلاً » ولكنّه مع

ذلك هو القدوس الذي نفرت طبيعته من الاثم، وقاسى صراعا وعذابا أليما وهو في عالم الخطية، فجعلت بشريته الصلاة ضرورة له، لذة وامتنازا، ووجد في التحدث إلى الآب فرحا وعزاء، فإذا كان مخلص الناس، ابنُ الله الحبيب، قد شعر بحاجة إلى الصلاة، فكم هو أجدر بنا نحن الضعفاء والأثمة المائتين أن نشعرَ بحاجةٍنا إلى الصلاة الحارة المستديمة.

يترقب أبونا السماوي الفرصَ ليغمرنا ببركاته، وإنه لمن ميزتنا أن نشربَ جرعاتٍ مشبعةً من ينبوع محبته، فما أغرب قلة صلواتنا إليه. إنَّ الله لمستعد وراضٍ أن يسمع الصلاةَ الخالصةَ الصاعدةَ من أوضاع أولاده، ومع ذلك نرى بيننا ترددا ظاهرا في إعلامه حاجتنا، وماذا يظنُّ الملائكة في أناسٍ مساكين ضعفاءٍ مُعرضين لتجاربٍ قويةٍ وهم على رغم ذلك لا يصلُّون إلا قليلا، ولا يؤمنون إلا يسيرا! وأما الله فإنه مشتاقٌ إليهم، راغبٌ في أن يهبهم أكثرَ جدا مما يتصورون. وها الملائكة يُسرِّون بالسجود أمام الله ويحبون القرب منه تعالى ويتلذذون بالتحادث إليه ولكن أولاد آدم، وهم في مسيس الحاجة إلى عونهِ تراهم مكتفين بأن يسلكوا بدون نور الروح القدس وبدون مرافقته لهم وحضوره معهم.

يرخي الشرير سدول ظلامه على الذين يسهون عن الصلاة ويغريهم على الخطية إذ يهمس في قلوبهم بوسوسته، ذلك لأنهم لا يستغلون حقوقهم التي أنعم بها الله عليهم في الصلاة، ولماذا يحجم بنو الله عن الصلاة وهي المفتاح في يد الايمان به يفتحون خزائن السماء المذخر فيها وفور غنى القادر على كل شيء؟ وإن لم ندأب في الصلاة ونجاهد في السهر نعرض أنفسنا لخطر الإهمال فالحيدان عن المنوال المستقيم، لأن العدو يسعى سعيا متواصلا ليضع العراقيل

في الطريق المؤدي إلى عرش النعمة ويمنعنا من الحصول على النعمة والقوة لمقاومة التجارب بواسطة الإيمان والصلاة.

أجل يشترط الله شروطا معينة لا بدّ من إيفائها ليستمتع لدعائنا ويجيبنا إلى طلباتنا، أولها أن نشعر بحاجتنا إلى معونته، فقد وعد قائلا « أسكب ماء على العطشان وسيولا على اليابسة»، إشعياء ٣: ، فالذي يجوع ويعطش إلى البر ويشتاق إلى الله، لا بدّ من إشباعه، ولكن يجب أن يكون قلبه مفتوحا لتأثير الروح القدس وإلا فالبركة لا تأتيه.

إنّ أقوى حججنا لنيل البركات هي حاجتنا إليها عينا، فإنها تشفع فينا بأفصح العبارات، إلا أنه يجب علينا أن نطلب من الله أن يعمل لأجلنا، كما قال «أطلبوا تجدوا»، و «الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنا أيضا معه كل شيء» رومية ٨: ٣٢.

إن راعينا إثمًا في قلوبنا، أو تمسكنا بخطية واحدة معلومة لدينا، لا يستمتع لنا الرب، ولكنه في كل وقت يقبل صلاة النفس التائبة المنسحقة، فيحق أن نؤمن بأن الرب قد سمع وأنه يستجيب صلواتنا، لأننا ونحن خطاة قصار البصر، كثيرا ما نطلب ما هو لضررنا، وأما ابونا السماوي فحبا لنا ورفقا بنا يستجيب صلواتنا بأن يعطينا ما هو لخيرنا الأكبر وما كنا لنطلبه لأنفسنا لو استنيرت أذهاننا وعرفنا الأمور على حقيقتها، فعندما يبدو لنا أن صلواتنا غير مستجابة يجب أن نتمسك بالوعد، لأنه لا بد من أن يأتي وقت الاستجابة وننال البركة التي نحن في أشد الحاجة إليها، وأما الإلحاح بأن صلواتنا تستجاب بالكيفية التي نعيّنها نحن وفي الشيء نفسه الذي نطلبه فهو تطفل، بل تصلف،

لأن الله احكم من أن يخطيء وأصلح من أن يمنع خيرا عن السالكين بالكمال، فلا تخش الاتكال عليه حتى إذا كنت لا ترى الجواب فورا عما طلبت، بل ثق بالوعد الأكيد القائل «اسألوا تعطوا» متى ٧:٧.

أما اذا أخذنا بمشورة شكوكنا ، وسرنا على رأي مخاوفنا، وأردنا أن نحلّ كل معضلة قبل أن نؤمن بالله، فلا نزداد إلا حيرة وارتباكاً، ولكن إذا أتينا اليه شاعرين بنقصنا وقصر باعنا، وبإيمان وديع وثقة ثابتة أعلمناه بحاجتنا، وهو العليم بما في السماء وعلى الأرض، ويرى كل ما في الخليقة ويسير كل شيء بكلمته وبحسب إرادته - فهو القادر أن يسمع دعاءنا وينير قلوبنا، وهكذا بصلواتنا المخلصة نصير على اتصال بفكر القادر على كل شيء، وقد لا نرى دليلاً قاطعاً على أنّ المخلص يحنو علينا ويحبونا برحمته ومحبه، وقد لا نحسّ بلمسة يده على جباهنا في رفق وحنان، ومع ذلك هذه هي الحقيقة الراهنة.

وإذ نأتي إلى الله لنطلب منه رحمة وغفرانا يجب أن يملأ قلوبنا روح التسامح والمحبة للآخرين، وكيف يمكننا أن نصلي قائلين « وأغفر لنا ذنوبنا كما تغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا» ما دام فينا روح الانتقاد وعدم الإغضاء؟ فإنه على قدر ما نتوقع أن يسمع لنا ويسامحنا، على هذا القدر عينه يجب أن نصفح نحن للآخرين ونسامحهم.

جعل الله المثابرة على الصلاة شرطاً لاستجابتها، فقد أمرنا أن نصلي بلا انقطاع لكي نتقوى في الإيمان ونتقدم في الاختبار، فأمر أن نواظب « على الصلاة»، وأن نسهر «فيها بالشكر»، ونتعقل ونصحو « للصلوات»، و «في كل شيء بالصلاة والدعاء مع الشكر لتعلم طلباتكم لدى الله» و « انتم أيها

الأحباء ... مصلين في الروح القدس ... احفظوا أنفسكم في محبة الله»،
 رومية ١٢: ١٢؛ كولوسي ٢: ٤؛ ١ بطرس ٤: ٧؛ فيلبي ٤: ٦؛ يهوذا ٢٠ و ٢١. في
 المواظبة على الصلاة تتحد النفس بالله اتحادا لا تنفصم عراه فتجري حياة من
 الله إلينا، وترجع إليه تعالى لمجد اسمه في طهارتنا وقداستنا.

إن المثابرة على الصلاة لضرورية حيوية، فيجب ألا يعوقك عنها شيء، بل
 ابذل الجهد لتكون نفسك على اتصال دائم بيسوع، واغتتم كل فرصة تسنح
 للذهاب إلى حيث تجري العادة أن تكون صلاة، لأن الذي يطلب محادثة الله تواه
 في اجتماع الصلاة قائما بواجبه، مهتما به، مجداً في الحصول على كل بركة
 وفائدة، ملتصقا أن يكون حيث تضيء عليه الأشعة السماوية.

يجب أن نصلي في دائرة العائلة، ولكن الصلاة الانفرادية هي أكثر الصلوات
 حياة للنفس وقوة لها، فإذا ما أهملت تذبل النفس ولا تستطيع أن تزهر وتثمر،
 ولا تغني الصلاة العائلية أو الصلاة العمومية في المجتمع عن الصلاة الانفرادية
 في المخذع، إذ أننا نحتاج أن نكشف نفوسنا أمام الله على انفراد وأن نصعد
 ابتهاجاتنا إلى اذني رب الجنود حيث لا تسمعها أذن بشرية، والنفس في المخذع
 تكون بعيدة عن كل تأثير خارجي وفي معزل عن كل ما قد يثير الحواس أو
 يهيج العواطف، فتتلمس الله بهدوء وحرارة عظيمين، وما أحلى البركات
 المنبثقة حينئذ من الذي يرى في الخفاء ويسمع كل صلاة تصعد من صميم
 الفؤاد، وهكذا، بالإيمان البسيط الهادي، تتمسك النفس بقوة الله وتجمع لذاتها
 أشعة نوره لتسندها في محاربتها الشيطان الرجيم، إن الله ليرجها الحصين.

فصل إذن في مخدعك، وليكن قلبك مرفوعا إلى الله، وأنت تباشر أعمالك اليومية، لانه هكذا سار أخنوخ مع الله، ومثل هذه الصلوات الصامته تصعد أمام عرش النعمة كالبخور العطر، ولن يغلب الشيطان أبدا الإنسان الذي يستند على الله هكذا في قلبه.

وليس من مكان أو زمان لا يليق رفع الطلبة إلى الله فيهما، وليس من مانع يستطيع أن يمنعا من التوجه إليه في قلوبنا في روح الصلاة الحارة طالبين في شوارع المدينة المزدحمة أو في وسط صفقة تجارية، الإرشاد الإلهي، كما فعل نحما وهو مائل في حضرة الملك ارتحشستا، لأننا حيثما كنا فنحن مع الله كما في مخدع، وقلوبنا مفتوحة تدعو يسوع أن يمكث فيها ضيفا كريما محبوبا.

ولئن كنا محاطين بجو فاسد مميت، لا يتحتم علينا أن نستنشق هواءه المفسد، بل في إمكاننا أن نحيا في جو السماء النقي المنعش بأن نوصد كل باب في وجه التصورات النجسة والتفكرات الدنسة، ونرفع قلوبنا إلى الله في صلاة خالصة، فالذي يرفع نفسه إلى الله لقبول عونه وبركته يسير في جو أقدس من الذي يحيط بالأرض، ويتصل بالسماء اتصالا وثيقا دائما.

من حاجتنا الماسة أن نرى يسوع رؤية أجلي وأوضح وأن ندرك الأمور الأبدية إدراكا أكمل وأصرح، فيجب أن تملأ زينة القداسة حياة أولاد الله، ولا يتم لهم هذا إلا إذا طلبوا إعلان الأمور السماوية إعلانا إلهيا جليا.

فلتتجذب النفس إلى فوق ليمنحها الله أن تتنسم نسيم السماء لأنه في إمكاننا أن نعيش قريبا من الله حتى تتجه أفكارنا إليه إذا داهمتنا تجربة كما تتجه زهرة الأقحوان نحو الشمس على الدوام.

اعرض حاجاتك وأفراحك وأحزانتك وهمومك ومخاوفك أمام الله بصورة دائمة، فإنه لا يقلق من كثرتها ولا يمل من عددها، فالذي يحصي شعر رؤوسنا، ألا يهتم بحاجات أولاده؟ بلى. (الرب كثير الرحمة ورؤوف) يعقوب ١: ١١، وقلبه المحب يتأثر من أحزاننا حتى من ذكرها له، فاذهب اليه بكل ما يحير فرك واثقا أن الذي يحمل العالمين بكلمته ويسير الكواكب حسب إرادته لا يعظم عليه أمر، ولا يستصغر أمرا ما حتى لا يعيره التفاتا، فليس في اختباراتنا فصل لا يستطيع أن يقرأه ولا في حياتنا معضلة لا يعرف حلها، ولا تصيب أحد أولاده الاصاصر نكبة، ولا يبهجهم فرح، ولا يساورهم خوف، ولا تصعد صلاة خالصة من شفاههم، إلا ويعلم بها أبونا السماوي ويهتم لهم بها، فهو «يشفي المنكسري القلوب ويجبر كسرهم» مزمور ١٤٧: ٣، ويعامل كل نفس معاملة فارقة كاملة كأنها هي الوحيدة التي بذل ابنه لأجلها.

قال يسوع « في ذلك اليوم تطلبون باسمي، ولست أقول لكم إنني أنا اسأل الآب من أجلكم. لأن الآب نفسه يحبكم» و « أنا اخترتكم ... لكي يعطيكم الآب كل ما طلبتم باسمي»، يوحنا ١٦: ٢٦ و ١٥: ٢٧، ولكن الطلب باسم يسوع لا يعني مجرد ذكر اسمه العزيز في مستهل الصلاة أو في ختامها، بل يعني أن يكون فينا فكر المسيح وروحه وان نكون مؤمنين بمواعيده، متكلين على نعمته وممارسين أعماله.

وإذ يطلب الله منا أن نعكف على التعبد والصلاة، فهذا لا يعني أن نعتزل هذا العالم ونلجأ إلى الأديرة والصوامع لكي نحيا حياة الترهّب والتنسك، بل يجب ان نكون مقتدين بيسوع الذي كان يقضي يومه بين الاختلاء في الجبل وخدمة الجمهور، فمن يحاول أن يقضي الوقت كله في الصلاة لا يلبث أن يهجرها أو

يأتيها كمجرد فرض عليه، ذلك أن الإنسان عندما ينتزع نفسه من حياة المجتمع ويتناهى عن الواجب المسيحي ويتهرب من حمل الصليب، تفتر همته ويخمد نشاطه في خدمة سيده وتصير صلاته بدون هدف وبدون باعث وتصبح طلباته مقتصرة على ذاتيته ومحصورة في دائرة انانيته، فلا يصلي لأجل حاجات البشر عامة أو لأجل تقدم ملكوت الله أو للحصول على قوة لكي يخدم ربه خدمة ناجعة مقبولة.

إننا إن أهملنا واجب المعاشرة واغفلنا تشجيع وتقوية بعضنا البعض على المضي في خدمة الله، نخسر خسارة آية خسارة إذ تفقد الحقائق الإلهية قوتها على إحيائنا، وتقل أهميتها في نظرنا، فلا تؤثر بعد في أفكارنا لإبارتها وتقديسها، فننحط انحطاطا روحيا متواليا، هذا وإن لم يصِرَ بيننا وبين بعضنا عطفٌ متبادل نخسر ميزات المعاشرة وفوائدها، لأن الذي يعيش بمعزل عن الناس وينطوي على نفسه لا يملأ المقام المعين له من الله، ففينا غرائز تميل إلى المخالطة ويكسبنا إناؤها عطا على الآخرين وتقدما في خدمة المولى وقوة على إرضائه.

لو كان المسيحيون يجتمعون للتحادث عن محبة الله وعن الفداء العظيم والحق الثمين لشرحوا بذلك خواطرهم وانعشوا بعضهم بعضا، لأنه في إمكاننا أن نتقدم كل يوم في معرفة الله ونختبر اختبارات جديدة في نعمه، وإذ ذاك نرغب في التكلم عن محبته وتلهب قلوبنا فينا ونتشجع، فلو زدنا في التحادث عن يسوع وقللنا من التكلم عن أنفسنا لتمتعنا بدوام حضوره معنا وحلوله بيننا.

لو كان تفكرنا في الله يعادل ما نراه من الدلائل على عنايته بنا لكننا نفكر فيه على الدوام ونُسَرِّ بالتكلم عنه ونلهج بحمده، أننا نتحدث عن الامور الزمنية لأننا نهتم لها، ونذكر أعباءنا لأننا نحبههم ونرتبط بهم ولأنهم علّة أفرحنا وأتراحنا، بيد أن أسباب محبتنا لله كثيرة لا تقاس، فيجب ان يكون غريزيا فينا أن نجعله الأول في أفكارنا لنذكر حسناته ونخبر بقوته، ولم يكن القصد من هباته الغنية التي يجزلها لنا ان نستغرق فيها ونغرم بحبها حتى لا يكون لنا وقت للتفكير في واهبها، بل كان القصد منها أن تربطنا به تعالى برباط المحبة والشكران الشديدين، ولكننا نسكن في الحضيض، فلنرفع أعيننا إلى باب المقدس السماوي المفتوح حيث نرى مجد الله المضيء من وجه يسوع المسيح القادر «ان يخلص أيضا إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله» عبرانيين ٢٥:٧.

يلزم أن نكثر الحمد «على رحمته وعجائبه لبني آدم» مزمو ١٠٧:٨، وألا تقتصر عبادتنا على الطلب والأخذ، وألا نفكر دائما في حاجاتنا ونغض الطرف عما بين أيدينا من النعم والبركات، لأننا، وإن كنا لا نصلي أكثر مما يلزم وإنما نبخل في تقديم الشكر اللائق، نرى مراحم الرب التي تغمرنا على الدوام، وما أقل شكرنا وما أشد بخلنا في الحمد له على كل ما صنع لأجلنا.

قال الله لإسرائيل قديما إذ اجتمعوا لخدمته «تأكلون هناك أمام الرب الهكم وتفرحون بكل ما تمتد إليه أيديكم، انتم وبيوتكم، كما بارككم الرب الهكم» تثنية ١٢:٧، فالذي نعمله لمجد الله إنما يجب أن نعمله بفرح وبترايم الحمد والشكر، لا بالغم والاكتئاب.

إنَّ إلَهِنا أَبٌ رُؤُوفٌ فيجب ألا نحسب الخدمة له عملاً شاقاً مكدرًا، بل سرّاً ومُستحباً لدينا، وأنه لا يسرّه ان نعتبره سيّدا صارماً مسخراً فهو صديقنا الخالص، وإن نعبده يريد الحضور معنا ليباركنا ويعزينا ويملاً قلوبنا فرحاً ومحبة، فنجد في عبادته عزاء ولذة، لا عناء ومشقة، ونخرج من مكان العبادة وأفكارنا منصرفة إلى التأمل في عنايته ومحبته، فنثقوى للقيام بالواجبات اليومية ونحصل على نعمة تمكّنا من الاستقامة والأمانة في جميع معاملتنا.

فانجتمع حول الصليب ولنجعل المسيح وإياه مصلوباً مدار تأملاتنا وموضوع محادثاتنا ومبعث فرحنا وابتهاجنا، ولننتذكر كل بركة تأتيها من الله حتى إذا ما تحققنا عظم محبته نثق به ونودع بين يديه المسمرتين كل أمورنا عن رضى مطمئنين.

إنه في استطاعة النفس أن تسمو وتعلو إلى السماء على أجنحة الحمد والشكر، فاذا نُعِبْرُ عن شكرنا له بصوت الترنم تصير عبادتنا كعبادة الجيوش السماوية التي تقدم لله الحمد بقيثارات ونغمات مفرحة، ولقد قال تعالى ﴿ ذابح الحمد يمجديني ﴾ مزمور ٢٣: ٥٠، فلهنّ نتقدم إلى خالقنا ونهتف له بصوت ﴿ الحمد وصوت الترنم ﴾ إشعياء ٣: ٥١.

الشك

كثيرون تتوزعهم الأفكار وتقلقهم الشكوك، ولا سيما حديثو الإيمان، ذلك لأنهم يصادفون في الكتب المقدسة آيات لا يستطيعون تفسيرها ولا فهمها، يستخدمها الشيطان لإثارة الشك في كونها موحى بها من الله، فتراهم يتساءلون متحيرين، «كيف يمكننا أن نعرف السبيل السوي؟ وإذا كان الكتاب المقدس كلمة الله حقيقة كيف يتسنى لنا أن نتحرر من الشكوك والارتباكات؟»

إن الله لم يطلب من أن نؤمن دون أن يقدم لنا بيّنات كافية نبني عليها إيماننا، فالشواهد التي تدلنا على وجود الله، وتظهر لنا صفاته وسجاياه، وتثبت صدق أقواله، متوافرة لدينا، وهي مستساغة للعقل أيضا، ومع ذلك فإنه تعالى لم يُزل إمكانية الشك، إذ يجب أن نختار بين أن نؤمن أو نرتاب، فمن أراد أن يرتاب يجد ما يتعلل به، ومن أراد أن يؤمن فلا تعوزه البينة ولا ينقصه الدليل.

بيد أنه يستحيل على عقولنا أن تدرك كنه الله، أو أن تستوعب أعماله، لأنه تعالى محاط بأسرار تحير ذوي الألباب الثاقبة، فإن أذكى الأذهان المثقفة تعجز عن سبر غورها، بل يقف العلماء منها موقف من قال « إلى عمق الله تتصل أم إلى نهاية القدير تنتهي، هو أعلى من السموات فماذا عساك أن تفعل، أعرق من الهاوية فماذا تدري » أيوب ١١: ٧ و٨.

وكتب الرسول بولس في ذلك هاتفا بتعجب «يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء» رومية ١١: ٣٣، لكن، ولئن كان «السحاب والضباب حوله (فإن) العدل والحق قاعدة كرسيه» مزمو ٩٧: ٢، وفي استطاعتنا ان نفهم معاملته للناس وأنت نعرف بواعثه، فنرى فيها محبة ابدية متحدة بقوة فائقة الحد، ونستطيع ايضا أن ندرك من مقاصده ما هو لمنفعتنا، وأما فيما عدا ذلك فإننا نثق بمحبته ونتكل على قوته.

كذلك كلمة الله أيضا، فيها كما في منزلها، أسرار لا يمكن استقصاؤها، وأهم مواضيعها، كدخول الخطية إلى العالم، وتجسد المسيح، والتجديد والقيامة، وما إلى ذلك من مكنونات الكتب المقدسة، كلها أعماق لا يصل الإنسان إلى سبر غورها، ولكن عدم استطاعتنا أن ندرك أعمال العناية الإلهية ليس مما يدعو إلى عدم الإيمان بها، إذ أننا محاطون في عالم الطبيعة، بأسرار لا يمكن الوصول إلى فهمها، فلم يستطع فطاحل العلماء والفلاسفة أن يفهموا كنه الحياة الظاهرة في أبسط مخلوقات الله، وإنما حينما نلتفت نجد أسراراً لا ندركها، فهل نستغرب إذاً وجود أسرار في العالم الروحي يعسر علينا فهمها؟ والصعوبة ليست في الحقائق نفسها بل في ضعف العقل البشري وقصره، ومع ذلك فقد أعطانا الله في الكتب المقدسة بيانات كافية لإثبات الحقيقة بأنها من مصدر الهي، فلا نشك فيها إذا وجدنا فيها ما ليس في طاقتنا أن ندركه تماماً.

نعم، في الكتب المقدسة، كما قال الرسول بطرس، «أشياء عسرة الفهم يحرفها غير العلماء وغير الثابتين ... لهلاك أنفسهم» ٢بطرس ٣: ١٦، وقد اتخذ الملحدون هذه الأشياء العسرة الفهم حجة لعدم الإيمان، بيد أن النتيجة

يجب أن تكون على النقيض من ذلك، لأن هذه الصعوبات تكون حجة قوية على كونها منعزلة، إذ لو خلت الكتب المقدسة، في أخبارها إيانا عن أمور الله، من كل ما يعسر علينا فهمه، ولو أدركت العقول البشرية الضعيفة ما جاء فيها عن عظمته وجلاله، لاعتبر هذا الخلو برهاناً على أنها لا تحمل سمة الله التي تنفي عنا كل شك، أما سمو مواضيعها وجلالها فيولدان في القلوب أيماناً بها وثقة بأنها كلمة الله المنزلة.

يعرض الكتاب المقدس الحق ببساطة يتمكن معها عامة الناس من معرفة جليلة، وينشره بكيفية تلائم حاجات البشر وتمنياتهم، ولقد أذهلت ذوي العقول المثقفة واستهوتهم، غير أن الحقائق التي يعبر عنها الكتاب المقدس ببساطة متناهية تتناول مواضيع سامية، بعيدة الغور، فائقة قوة الإدراك البشري، حتى أننا نؤمن بها فقط لثقتنا بأن الله تعالى هو معلنها، فنرى تدبير الفداء موضحاً بحيث تعرف كل نفس الخطوات التي عليها أن تخطوها في التوبة إلى الله والايمان بربنا يسوع المسيح الذي به تنال الخلاص من الله، ومع ذلك يحوي هذا التدبير الواضح اسرار يتستر فيها مجد الله، تذهل عقول دارسيها وتلهم المخلصين في طلب الحق وقارا وإيماناً، وإذا أمعن القاريء النظر فيها ازداد اقتناعاً ويقيناً بأنها كلمات الله الحي، فينحني المنطق البشري أمام جلال الوحي الإلهي.

يرفض الشكاك والملحدون كلمة الله لأنهم يعجزون عن سبر غور أسرارها وليس جميع الذين يدعون الإيمان في أمن من هذا الخطر المحدق، فها الرسول بولس يحذرتنا قائلاً «انظروا أيها الاخوة أن لا يكون في أحدكم قلب شرير بعدم الإيمان في الارتداد عن الله الحي» عبرانيين ٣: ١٢. إنه لمن الصواب أن ندرس

تعاليم الكتب المقدسة بتدقيق وامعان، وأن نفحص كل شيء » حتى اعماق الله»، ١كورنثوس ١٠: ٢، كما قد أعلنها الله، لأن «السرائر للرب الهنا والمعنات لنا» تثنية ٢٩: ٢٩، ولكن الشيطان يعمل على تضليل قوَى العقل، فيدخل في دارس الكتاب المقدس شيئاً من العجب بذاته حتى أنه يشعر بتضجر وفشل إن لم يستطع ان يفهم كلمات الوحي، ولا يصبر ريثما يعلنها له الروح القدس حين يشاء، واذ يعتد بحكمته البشرية حاسبا أنها كافية لإدراك معاني الكتب المقدسة، ثم يُمْنى بالفشل في بلوغ الغاية المنشودة فما يلبث أن يكذبها ويرفض سلطانها، وهذه النظريات والمعتقدات التي تولد الشك في العقول وتربكها والتي يزعمون أنها مبنية على كلمة الله، وهي بالحقيقة لا تمت إليها بصلة، بل تناقضها تناقضاً بيناً، إنما هي من استنباط الناس وتحريفهم، وكلمة الله بريئة منها براءة تامة.

لو كان في مقدور المخلوق أن يحيط علماً بالخالق ويدرك جميع أعماله إدراكاً كاملاً لبلغ بذلك الحد في التقدم والمعرفة حتى لم يبق له مجال للنمو في العلم والازدياد في كمال الصفات، فلا تكون بعد أفضلية الله أو سيادة، والإنسان، اذ قد بلغ الحد في العلم والكمال، يتوقف عن التقدم، فلنشكرن الله أن الامر بخلاف ذلك، لأن الله، «المزخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم» كولوسي ٣: ٢، لا يستقصى ولا يُحدّ، وسيقضي الإنسان الأبدية كلها في البحث والدرس دون أن يستنفد كنوز حكمة الله وجوده وقوته.

يريد الله منا أن نتقدم، حتى في هذه الحياة، تقدماً مطرداً في فهم حقائق كلمته، ولا سبيل إلى ذلك إلا بإبارة الروح القدس الذي أوحى بها، لأن «أمور الله لا يعرفها أحد إلا روح الله» و «الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله»

١كورنثوس ١٠: ١١ و١١، وقد وعد المخلص تلاميذه قائلا «متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق ... لأنه يأخذ مما لي ويخبركم»
يوحنا ١٦: ١٣ و١٤.

يريد الله أن يستعمل الإنسان قواه العقلية، وليس ما يزيد هذه القوى قوّةً واقتداراً ويرقيّ الذهن ترقية عالية مثل درس كلمة الله، على أنه يجب علينا ان نحترس من تأليه العقل، لأنه يشارك سائر أعضاء البدن ضعفاتها وأسقامها، وإن كنا نريد ألا تلتبس علينا أوضح الحقائق الكتابية يجب أن ندرسها ببساطة الولد وإيمانه مظهرين رغبتنا في التعلم وملتسمين معونة الروح القدس، وإذا شعرنا بقدرة الله وحكمته وعدم استطاعتنا أن ندرك عظّمته يلهمنا هذا الشعور وداعة واتضاعاً، فنفتح الكلمة بوقار مقدس كما لو كنا نمثل امام حضرته فعلاً، فيجب أن يقدّم المرء على درس كلمة الله معترفاً بوجود سلطة تفوق العقل ومخضعا للقلب والعقل ليهوه القيوم.

يوضح الله الأشياء الكثيرة التي تبدو غامضة معقدة والتي نميل دائماً إلى تحريفها وإساءة تأويلها للذين يدرسون الكلمة بروح الوداعة طالبين النور والارشاد، ولكنّ الكثيرين يقرأون الكتاب المقدس ولا يجنون منه فائدة، ولربما يصيبهم ضرر بالغ إذ هم يفتحون كلمة الله بدون احترام وبدون صلاة، وافكارهم لم تتوجه إلى الله ولم تثبت عواطفهم فيه ولم تتسق اراداتهم مع ارادته، فيخيّم الشك على عقولهم ويتقوّى فيهم عدم الإيمان فيملك العدو أفكارهم ويوحى إليهم بتفسيرات مضلة، والذي لا يطلب أن يوائم الله قولاً وفعلاً مهما كان عالماً مقتدراً، هو عرضة للخطأ في فهم الكتاب المقدس والضلال في تفسيره، فلا يُعوّل عليه، وأولئك الذين يفتشون الكتاب المقدس بقصد العثور

على تناقضات فيه إنما تنقصهم البصيرة الروحية، وإذ ينظرون إليه نظراً معوجاً يرون في أبسط آياته وأوضحها أسباب الشك وعدم الإيمان.

إنَّ سبب الشك الأساسي، مهما تنكَّر وتسترَّ، هو في الغالب الميل إلى الخطية، فلا يرحب المتكبر المحب للخطية بمناهي كلمة الله وإرشاداتها، وإذ لا يرغب في الانصياع لتعليمها تجده على استعداد أن يشك في صحتها وينكر سلطتها، فلكي نصل إلى معرفة الحق يجب أن تكون فينا رغبة صادقة في معرفة الحق وميل قلبي للسلوك بموجبه، وكل الذين يدرسون الكتب المقدسة بمثل هذه الروح يجدون فيها البراهين القاطعة على أنها كلمة الله حقاً، وقد يكتسبون من معرفة حقائقها ما يحكمهم للخلاص.

قال يسوع «إنَّ شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم»، يوحنا ٧: ١٧، فعوضاً عن التساؤل والتماحك في ما لا تفهمه احرص أن تنتبه إلى النور الذي قد حصلت عليه فتأخذ نوراً أعظم، واجتهد، بنعمة المسيح، أن تقوم بكل واجب قد صار واضحاً أمامك تنل قوة تقدرك على فهم ما انت فيه الآن شاكٍ وعلى القيام به أيضاً.

إنَّ في الاختبار لدليلاً يدركه الجميع، متعلمين كانوا أو أميين، والله يدعونا إلى امتحان صحة أقواله وصدق مواعيده إذ يأمرنا قائلاً «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب» مزمور ١٦: ٢٤، لأنه لا بد أن يحقق لنا هذه المواعيد التي لم تخب قط ولن تخيب أبداً، وإذ ندنو من يسوع ونفرح بملء محبته نزول شكوكنا وينقشع ظلامنا في نور حضرته الجميل.

قال الرسول بولس إنَّ الله « أنقذنا من سلطان الظلمة زنقلنا إلى ملكوت ابن محبته » كولوسي ١: ١٣، وكل من قد انتقل من الموت إلى الحياة « قد ختم ان الله صادق » يوحنا ٣: ٣٣، فيمكنه أن يشهد قائلا « احتجت إلى العون ووجدته في يسوع الذي سد حاجاتي واشبع جوع نفسي وجعلني أوْمن الآن أنَّ الكتب المقدسة إعلان بيسوع المسيح، فإن سألتني عن سبب إيماني بيسوع أجبت أنني، اخترته كمخلصي وإلهي وإذا سألتني عن ثقتي بالكتب المقدسة أجبت أنني وجدتْها صوت الله لنفسي » وهكذا قد يكون لنا في أنفسنا الشهادة أن الكتاب المقدس حق، وأن المسيح ابن الله، وأنا في إيماننا به « لم نتبع خرافات مصنعة ».

حثَّ بطرس الرسول الآخوة على أن ينموا « في النعمة وفي معرفة ربنا ومخلصنا يسوع المسيح » ٢ بطرس ٣: ١٨، فإنه عندما يكون شعب الله ناميا في النعمة يزداد على الدوام فهما وإدراكا لكلمته تعالى، ويكون في استطاعته أن يرى نورا جديدا وجمالا جديدا في حقائقها المقدسة، ولقد صدق هذا القول في كل تاريخ الكنيسة على مدى العصور، وسيظل صحيحا إلى النهاية، كقول الحكيم، « اما سبيل الصديقين فكنور مشرق يتزايد وينير إلى النهار الكامل »، امثال ٤: ١٨.

فبالإيمان نستطيع أن نتطلع إلى الأبدية ممسكين بوعده الله من جهة ما سنكون عليه من النمو العقلي واتحاد مداركنا بالمدارك الإلهية وجعل كل قوة من قوى النفس على اتصال مباشر بمصدر النور، فحينئذ نستطيع أن نفرح ونتهلل لأن كل الأمور التي تسبب لنا حيرة وارتباكاً بشأن أعمال العناية ستكون واضحة جلية، والأشياء التي تبدو لنا عسرة الفهم ستكون مدركة مفهومة، وكل

ما بدا لعقولنا مشوّشا مضطربا سنراه على أتمّ انسجام وأجمل تنسيق، «فأننا ننظر الآن في مرآة في لغز ولكن حينئذ وجهها لوجه، الآن اعرف بعض المعرفة لكن حينئذ سأعرف كما عرفت» ١كورنثوس ١٣: ١٢.

الفصل الثالث عشر

الفرح

إنّ أولاد الله لمدعوون ليكونوا سفراء عن المسيح مظهرين للعالم جود الرب ورحمته، فكما أعلن المسيح صفات الآب على حقيقتها، هكذا ينبغي أن نعلن نحن أيضا المسيح على حقيقته لعالم لا يعي حنوّ محبته وشفقتها، وقد وصف يسوع مهمتنا هذه إذ قال مخاطبا الآب، « كما أرسلتني إلى العالم، أرسلتهم أنا إلى العالم»، « أنا فيهم وأنت في ... ليعلم العالم أنك أرسلتني» يوحنا ١٧: ١٨ و ٢٣، ويخبر بها الرسول بولس في قوله عن تلاميذ يسوع «ظاهرين انكم رسالة المسيح» « معروفة ومقروعة من جميع الناس» ٢ كورنثوس ٣: ٢٣، ففي كل من أولاده يرسل يسوع رسالة إلى العالم ويرسل بك وأنت من أولاده رسالة إلى أسرتك، وإلى قريتك، وإلى الحي، الذي تسكنه لأنه وهو حال في قلبك يريد أن يتحدث بك إلى قلوب الذين لا يعرفونه، وقد يكون أنهم من الذين لا يطالعون الكتب المقدسة، فلا يسمعون صوته من صفحاتها، ولا يرونه في أعماله، ولكنهم، إن أنت مثّلتهم أمامهم، قد يفهمون شيئا من رحمته ويربحون لمحبهته وخدمته.

جعل المسيح من الذين يتبعونه منارات تنير بنوره الطريق المؤدي إلى السماء لكي يستنير كل من يراهم ويلحظ صفاتهم ويعرف من هو المسيح وما هي خدمته.

إن نحن مثلاً خدمة المسيح على حقيقتها تبدو جذابة خلابة، وأما المسيحيون الذين تملأ قلوبهم الكآبة والحزن وتنطق السننهم بالتذمرات والشكاوى، فهم يمثلون الله والحياة المسيحية تمثيلاً كاذباً إذ يحملون الناس على الظن بأنه تعالى لا يسرّ بسرور اولاده وسعادتهم، فهم يشهدون على أبيهم السماوي شهادة زور.

يشمت الشيطان بالله عندما ينجح في اقتياد اولاده إلى اليأس والقنوط، ويبتهج إذ يحملهم على الارتياح من ارادة المولى في خلاصهم وفي قوته على ذلك، ويرتاح ارتياحاً عظيماً إذ يراهم يوجسون شراً من العناية، فإن شغل ابليس الشاغل هو أن يصور الله لعقولنا كأنه تعالى خالٍ من الرأفة ومجردٌ من الرحمة، وهكذا يعيّر الشيطان عن الحق تعبيراً كاذباً ويملاً المخيلات بأفكارٍ عن الله فاسدة، وكثيراً ما نتأمل في أباطيل العدو هذه، ولا نتأمل في الحق، فنهين الله بشكوكنا فيه وتذمراتنا عليه، والشيطان دؤوب في تصوير الحياة المسيحية كأنها حياة التشاؤم مليئة من الاتعاب والصعاب، وعندما يظهر المؤمن امام العالم بمثل هذا المنظر فإنه بعدم ايمانه يدعم ادعاء الشيطان الكاذب هذا.

كثيرون، وهم يسيرون في طريق الحياة، يطيلون التفكير في غلطاتهم وفي هزائمهم وخيبة آمالهم، فتمتليء قلوبهم حزناً وكآبة، كما حدث لأخت كتبت إليّ وأنا في أوروبا تطلب مني كلمة تشجيع في ضيقها العظيم، وحدث في الليلة التالية لقراءة كتابها أنني حلمت أنني في بستان وصاحب البستان يقودني في طرقاته وأنا أخطف الزهور واتلذذ بجمال رائحتها، وإذ بالأخت المشار إليها وهي تسير إلى جانبي تلفت نظري إلى العوسج والقريص الذي كان يعترض طريقها، فكانت تننّ وتتنهد ولم تتبع القائد في الطريق بل سلكت بين الشوك

والعوسج وهي تقول «آه أليس مما يؤسف له أن هذا البستان الجميل تفسده هذه الاشواك»، فأجابها القائد قائلا: «دعي الاشواك وشأنها، وإلا فإنها تجرحك، واقطفي الورد والزنبق والقرنفل».

ألم تجتز في اختباراتك في مراتع هناء؟ ألم يطرب قلبك فرحا بالروح يوما ما؟ وإذا تصفحت سفر حياتك ألا تجد بين صفحاته صفحات ملذّة؟ أوليست مواعيد الله كزهور عاطرة نابئة على جانبي الطريق يمتليء قلبك فرحا لجمالها وحلاوتها؟

أما العوسج والاشواك، فهذه إنما تجرحك وتكدرك، وإن حصرت همك في جمعها، ورحت تقدمها للآخرين، افلا تكون بعملك هذا قد منعت الذين حولك من السير في طريق الحياة؟ بلى، وازدريت أيضا بجود الله وانكرته.

فليس من الحكمة أن نذكر مكدرات حياتنا الماضية ونكرر ذكر خطاياها واخفاقاتها ونتحدث عنها ونحزن عليها إلى أن يغمرنا الفشل واليأس، فإنّ النفس الخائرة العزم يحفّها ظلام قاتم لا يتخلله نور الله، بل وتلقي سحابة مظلمة على طريق الآخرين أيضا.

نشكر الله على الصور الجميلة التي يعرضها علينا في كلمته، فلنجمعن توكيدات محبته المباركة، لكي نتأملها باستمرار فنرى ابن الله تاركا عرش أبيه ولابسا الطبيعة البشرية لينقذنا من سلطة ابليس. ولنأمل انتصاره لأجلنا فاتحاً لنا ابواب السماء ومعلننا للعين البشرية حجة حضرته حيث يتجلّى المجد الإلهي، فنرى الجنس الهالك مرفوعا من وهدة الهلاك التي تردى فيها بواسطة الخطية، معاداً اتصاله بالقادر على كل شيء، فائزا في امتحان الإيمان بالفلاحي،

مكتسبا برّ المسيح وجالسا على عرشه - إنّ هذه هي الصور التي يعرضها علينا ويريد أن نطيل التأمل فيها، فنفرح كل حين.

ولكن عندما يبدو علينا الارتياح من محبة الله وعدم الثقة بمواعيده نهينّه ونحزّن روحه القدوس، وماذا يكون شعور أمّ إذا كان اولادها يشكون منها باستمرار، كأنّها غير معنية بشؤونهم في حين أنّ كل جهودها منصرفة إلى الاهتمام بهم والعمل على إراحتهم. أو ليس ممّا يكسر قلبها أن ترى أولادها يرتابون من محبتها؟ وأي والد يرضى بأن يعامله بنوه بمثل هذه المعاملة؟ وكيف يعتبر ابونا السماوي شكوكنا في محبته بعد أن بذل وحيداً لأجلنا لكي نحيا حياةً أبديةً كما قال الرسول «الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا اجمعين كيف لا يهبنا ايضاً معه كل شيء» رومية ٨: ٣٢، ومع ذلك فكم من امريء يقول، إن لم يكن بلسان مقاله فبلسان حاله، إنّ الله لا يقصدني انا شخصيا بهذه المواعيد فربما هو يحب الآخرين ولكنه لا يحبني أنا بالذات.

إنّ هذا الموقف ليضرّ بنفسك لأنك في تعبيرك عما يخامرك من الشكوك تفتح الباب للمجرّب وتقوّي في نفسك الميل إلى الارتياح وتحزن الملائكة القائمين على مساعدتك وحراستك، فإذا جرّبك العدو لا تسمح لنفسك بأن تتفوه بكلمة شك أو عدم الايمان، لأنك إذا فتحت الباب لإيحاءات العدو ووساوسه يملأ صدرك بهواجسه وفكرك بسؤالات التمرد، وإذا تكلمت بما في خلدك لا يعود كلامك بالضرر عليك فحسب، بل تزرع في افكار غيرك زرعاً ينبت ويأتي بثمر قد لا يبطل مفعوله أبداً. قد تستفيق انت من التجربة وتنجو من فخ إبليس، وهؤلاء الذين أثرت فيهم بتعبيرك عن شكوكك قد لا يستطيعون الخلاص من

الكفر الذي زرعه فيهم بكلامك، فمن المهم جدا أن نجعل كلامنا مقتصرًا على ما يهّب السامعين حياةً روحيةً وقوةً الهيبة.

ينصت الملائكة ليسمعوا ما تخبر به العالم عن إبيك السماوي، فليكن حديثك دائما عن الحي في كل حين ليشفع فيك، وإذ تصافح صديقك ليكن الحمد لله على شفيتك وفي قلبك، فإن هذا أدعى إلى اكتساب صديقك واجتذاب أفكاره إلى المسيح.

لكل الناس محنهم واحزانهم التي تثقل كاهلهم ولهم تجاربهم التي يصعب عليهم مقاومتها، فلا تخبر البشر رفقاءك بأتعاك، بل ألقها على الله بالصلاة، وخذها لنفسك قاعدة أنك لا تتفوه أبدا بكلمة من شأنها أن تثني عزم غيرك أو تبث فيهم الشك، بل اعمل ما في وسعك لتخفف عنهم أثقالهم وتقويهم بكلمات الرجاء والثقة المقدسة.

كم من نفس باسلة ترزح تحت وطأة التجربة، وقد اوشكت أن تخور في جهادها ضد نفسها وضد قوات الشر، فلا تثبط مثل هذه النفس في صراعها الشاق، بل شددتها بكلمات التشجيع والرجاء التي تدفعها إلى المضي في السير، وبذلك ينبعث منك نور المسيح ويضيء على الآخرين، « لأن ليس احد منا يعيش لذاته » رومية ١٤: ٧، فإنه بتأثيرنا، من حيث لا نشعر، قد يتشجع الآخرون ويتقنون، وقد يضعفون ويخورون، فيصدون عن الإتيان إلى المسيح وقبول الحق.

كثيرون يتصورون أنّ المسيح كان صارما عابسا بعيدا عن كل تبسم وفرح، ولذلك ترى كل حياتهم مصطبغة بهذا التصور المغلوط.

كثيرا ما نسمع الآية «بكى يسوع» والقول إن الكتاب لا يذكر أنه تبسّم، صحيح أن مخلصنا كان «رجل أوجاع ومختبر الحزن» لأنه حمل على قلبه ويلات البشر كلها، ولكن ولئن كانت حياته حياة إنكار الذات والتضحية وخيم عليها سحاب من الآلام والهموم، إلا أن هذا كله لم يسحق روحه فيه، ولم تكن هيئته هيئة الحزين المتضجر بل هيئة الرائق المطمئن، وقلبه كان كينبوع من الحياة يفيض سلاما وفرحا وابتهاجا حيثما حلّ.

كان مخلصنا ذا رزاة وجد بالغين، ومع ذلك لم يكن متجهما مكتنبا والذين يقتدون به يفعم حياتهم الاجتهاد الجدّي نفسه، وإذ يشعرون بثقل المسؤولية الشخصية يُبعدون عنهم كل نَزَقٍ وطيش وهزل، ويكون سلامهم كالنهر، هبة الديانة المسيحية لمعتقيها، فهي لا تطفئ جمرة الفرح ولا تخمد جذوة الابتهاج ولا تغيم على الوجه الوضاح البسام، فكما أن المسيح لم يأت ليخدم بل ليخدم هكذا هم أيضا يقتدون به والمحبة مالكة في قلوبهم.

إذا تأملنا في ما يأتيه الناس من الاعمال الجائرة القاسية نجد أننا لا نستطيع أن نحبههم كما أحبنا وإياهم المسيح، بيد أننا إذا أكثرنا التفكير في حنو محبة المسيح العجيب يفيض روح المسيح منا للناس، والحب للناس واجب واحترامهم لازم مهما رأينا فيهم من الهفوات والنقائص، وإذا ربينا أنفسنا على التواضع وعدم الاعتداد بالذات واللفظ والصبر امام هفوات الناس نستأصل بذلك الاتانية من أنفسنا ونكسبها سعة صدرٍ ورحابة قلب.

قال المرنم، «أكل على الرب وافعل الخير، اسكن الأرض وارع الامانة» مزمو ٣٧: ٣، أجل، «أكل على الرب» لأن لكل يوم اثقاله وهمومه ومحيراته،

ولكن حين نجتمع معا ما أكثر استعدادنا لأن نتحدث عن اتعابنا وتجاربنا، فهذا يتوجس شراً من هنا وذاك يتوقع صعباً من هناك، وكلنا نعبر عن ثقل همّنا، فكأنّ بنا وليس لنا مخلص حبيب شفق وُجد في الضيق عوناً شديداً.

ويتطلع البعض إلى الهموم التي قد تأتي فيستميلون للخوف منها مع أنهم محاطون يومياً بدلائل المحبة الكثيرة ويتمتعون بهبات العناية، إلا أنهم يغضون الطرف عن البركات الحاضرة وينصرفون إلى التأمل في أمور غير مستحبة قد تأتي، أو في صعوبة قد أتت، ومع صغرها، أعمت أعينهم عن الأشياء الكثيرة التي تستوجب الشكر العظيم، فهذه الصعوبات التي يجب أن تدفعهم إلى الله تفصلهم عنه تعالى لأنها تولّد فيهم القلق والتذمر.

هل بالصواب لا تؤمن؟ ولماذا نكون عديمي الشكر وعديمي الشفقة؟ إن يسوع لصديقنا والسماء كلها مهتمة لصالحنا، فيجب إلا ندع ارتباكات الحياة اليومية وشواغلها تجعلنا قلقى البال ومقْطبي الجبين، لأننا إذا استسلمنا لهذه الحال فلا بد من أن يكون لنا دائماً ما ينغصنا ويكرنا، فينبغي ألا نستسلم للهمّ فإن الهمّ يضيئنا ويبلينا دون أن يعيننا على احتمال التجارب.

قد ترتبك في تجارتك وقد تتعمّ الأحوال امامك وتهددك الخسارة من كل جانب، فلا تخربل القى على الرب همّك، واحتفظ بهدوءك وانشراحك، وصل إلى الله طالبا منه الحكمة في ادارة شؤونك لكي تتبصّر فيها وتمنع الخسارة والخراب، وتعمل ما في وسعك للحصول على نتائج مرضية، فقد وعد يسوع بالمساعدة إن بذلنا نحن جهدنا، ثمّ، وقد قمت بالواجب وانت متكل على معينك الأمين، اقبل النتائج برضى وفرح.

ليست إرادة الرب أن يثقل كاهل شعبه بالهمّ غير أنه لا يريد أيضا أن يضلّنا فلا يقول لنا «لا تخافوا لأنّ طريقكم مأمون وليست أمامكم مخاطر» كلا، بل هو يعلمُ أن التجارب والأخطار تنتظرنا، وقد جعلنا على بينة من الأمر وهو لا يوسّ أن يأخذ شعبه من عالم الخطية والشر، بل أن يدلّهم على الملجأ الأمين، فقد صلى من أجل التلاميذ قائلا، «لست أسأل أن تأخذهم من العالم، بل أن تحفظهم من الشرير» يوحنا ١٧: ١٥، وخطبهم قائلا: «في العالم سيكون لكم ضيق، ولكن ثقوا، أنا قد غلبت العالم» يوحنا ١٦: ٣٣.

في الموعظة على الجبل علّم المسيح تلاميذه دروسا ثمينة فيما يختص بضرورة الثقة بالله، وكان القصد من هذه الدروس تشجيع أولاد الله على مدى العصور، وقد وصلت ألينا مفعمّة بالتعليمات والتعزيات، فقد وجه المسيح أنظارَ التلاميذ إلى طيور السماء وهي تنطلق في الجو مغرّدةً أناشيد الحمد والشكران دون أن يشغلها همّ أو قلق، وهي مع كونها لا تزرع ولا تحصد، يمدّها الآب السماوي بكل حاجاتها، ثم سأل تلاميذه قائلا، «ألستم انتم بالحري أفضل منها»، فإن رزاق الإنسان والحيوان هو الذي يفتح يده ويشبع جميع مخلوقاته خيرا، وهو تعالى لا يغفل حتى عصافير السماء إذ يسد حاجاتها، وإن كان لا يضع الطعام في مناقيرها، لكنّه يعطيها فتلتقط، فهي تعدّ أعشاشها وتقوت صغارها وتنطلق في الجو مغردة في عملها، لأن الآب السماوي يقوتها «ألستم انتم بالحري أفضل منها»، وما قيمة العصافير بالنسبة اليكم وانتم خلائق الله العاقلة وعبادّه الروحانيون؟ أفلا يمدكم خالقكم ومخلص حياتكم بكل ما تحتاجون اليه إن انتم توكلتم عليه؟

أشار المسيح إلى زهور البرية النامية بكثرة، الزاهية بجمالها البريء الذي به زيتها أبونا السماوي تعبيرا عن محبته للإنسان، أشار إليه قائلا: «تأملوا زنايق الحقل، كيف تنمو» متى ٦: ٢٨. إن جمال هذه الزهور البرية الطبيعي ليفوق كثيرا مجد سليمان، بل ولا يعادله في ظرافته الطبيعية وبهائها اللامع الحلل التي حاكها وزخرفها أمهر الصانع، ثم أردف يسوع قائلا: فإن كان الله يزين عشب الحقل الذي في يوم واحد يفنى، بشتى الألوان البديعة اللطيفة، فكم بالحري يعتني بالذين خلُقوا على صورته ومثاله فدروس المسيح هذه إنما تحوى توبيخا لذوي الفكر القلق والقلب الشاكّ الجاحد.

إن الرب يودّ لو كان أولاده سعداء، في سلوة من العيش، طائعين، كما يدلّ على ذلك قوله «سلامي أعطيكم ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا، لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب» يوحنا ١٤: ٢٧، «كلمتكم بهذا لكي يثبت فرحي فيكم ويكمل فرحكم» يوحنا ١١: ١١.

إنّ السعادة التي ينشدها الإنسان عن دوافع ذاتية بعيدا عن طريق الواجب إنّما هي سعادة مختلة التوازن، متقلبة، زاهية، تضمحل تاركة النفس حزينة مستوحشة، ولكن في خدمة الله دوام الفرح والرضى فهو تعالى لا يترك المؤمن يسير في طريق الضلال، يتأسف تأسفا باطلا، وينوح خيبة الآمال، لأن البار، وإن كان لا يتمتع بكثير من بركات هذه الحياة إلا أنه يتطلع إلى الأبدية بفرح عظيم.

قد يكون للمؤمن، حتى في هذه الحياة، فرح الشركة مع المسيح وابتهاج السلوك في نور محبته وتعزية حضوره الدائم، فإنّ كل خطوة يخطوها تدنيه

منه وتهبه اختباراً أعمقُ في محبته وتزيده اقتراباً من وطنه المبارك، موطن السلام، فلا نطرحن ثقتنا، بل لنزدد تيقنا ورسوخا، لأن «إلى هنا أعاننا الرب» اصموئيل ١٢:٧، وهو سيعيننا إلى النهاية، ولنعدد معالم الطريق لنرى كيف أعاننا الرب وخلصنا من يد المهلك، ولنذكر مراحمه، الدموع التي مسحها، الآلام التي سكنها، الهموم التي أزالها، المخاوف التي بددها، الحاجات التي سددها، والبركات التي اسبغها، وبذلك نقوي نفوسنا لمواجهة ما قد يعترضنا في مراحل الطريق الباقية.

لا بدّ من أن نتوقع تحيرات جديدة في الاحتدام المقبل، ولكننا، إذ نعيد النظر إلى ما قد مضى، نقول «إلى هنا أعاننا الرب» و«كأيامك قوتك» تثنية ٣٣:٢٥ (حاشية)، فإن الامتحان لن يزيد صعوبة على ما نستطيع احتماله بالقوة الممنوحة، فلنعمل إذاً حيث نجد العمل متيقنين من الانتصار بالذي يقوينا.

عما قريب سيفتح المسيح أبواب السماء على مصراعيها لاستقبال أولاد الله، فيطربون لسماع البركة التي يردها رب المجد في قوله «تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم» متى ٢٥:٣٤.

حينئذ يقف يسوع أمام المفديين مرحباً بهم إلى المنزل الذي يعدّه لهم الآن حيث يكونون في صحبة الذين انتصروا على الشيطان، وصاغوا بنعمة الله أخلاقاً كاملة، ولا يكون هناك الزناة والكذبة ولا عبدة الأوثان، وأما كل ما كان قد اعترى المفديين من نقص أو ميل إلى الشر فيزول عنهم بدم المسيح، ويحلّ عليهم بهاء مجده الذي يفوق لمعان الشمس، ويضيء فيهم مجدٌ أسمى من

المجد الخارجي هو بهاء الصفات المكتملة، « لأنهم بلا عيب قدام عرش الله »
يشاطرون الملائكة شرفهم وميزاتهم.

فبالنسبة إلى هذا الميراث المجيد « ماذا يعطي الإنسان فداء عن نفسه؟ » قد
يكون فقيرا ومع ذلك يملك في نفسه غنى وشرفا لا يملكهما العالم كله فإنَّ
النفس المفدية المُطهَّرة من الخطية، المقدسة قواها النبيلة لخدمة الله لأنَّ من
الجواهر، وفي السماء يعبر الملائكة عن فرحهم بخاطيء يتوب بتَهليلات النصر
المقدس وأغانيه.